من أجل ولد



مِن أُجل وَلدي

قصّة الحب العائلى والمرأة فى صورها الأربع :
أم وزوجة وحبيبة وعشيقة

من أجل ولدي

محمد عبد الحليم عبد الله

١٩٩٠

مكتبة مصر
سعيد جودة السحار
٣ شارع كامل صدقي
"الفجالة" القاهرة



١

منذ سبعة وثلاثين عاما بدأت قصة حياتى ...

سأقصها عليك يا صديقى بكل ما فيها لأنها لا تخصنى وحدى .. إن التجارب المشتركة أشبه بمصابيح السماء تهدى نورها لكل جيل وتنثر ضوءها على كل قطر .

* * *

لما أدار أبى المفتاح فى باب المسكن الخارجى ، كان الليل قد جاوز منتصفه .

واتجه نحو الداخل مارا بحجرة أمى الواقعة على اليمين والتى كان النور فيها لا يزال مشعلا ، فتوقف وأطل من خصاص بابها ثم انصرف لينام فى حجرة أخرى وعلى وجهه علامات اشمئزاز ، فقد سمعها تئن .

كان فى حالة لا يستطيع معها أن يصنع شيئا لأنه سكران .

وفى حجرة أخرى بات يتلوى من آلام المعدة .. وفى الحجرة المجاورة باتت أمى تئن ... وظلت تئن وتتوجع حتى مطلع الفجر . ثم حدث لها ما لم يكن فى حسابها ولا حساب الطبيب نفسه . إذ ولدت غلاما ذكرا ، أبوه فى غيبوبة كحولية تخف وتثقل وتولد الخيالات .

أما ذلك الغلام فهو .. أنا !!

وعند الصباح أخذ أبى إجازة فلم يذهب إلى عمله . ورفع إلى الله وجهه الجميل الشاحب وابتهل بفم فاحت منه رائحة الخمر : أن أعيش !!

ودمعت عيناه . وسمع الله دعاء السكران ... بدليل أننى عشت .

ونذر للسماء نذرا عظيما هو أننى إن نجوت من قبضة الموت ليغيرن سلوكه وليبدأن حياة نظيفة .

كانا يفقدان كل من يلدان فى سن محددة لا تكاد تتجاوز ثلاثة أعوام .

وإذا عاد أبى من الخارج ببقية من وعيه كان يناقش هذا الموضوع مناقشة السكارى الأذكياء . فهو ولا شك يفكر فيه طول النهار ، خصوصا فى الساعات التى يخلوها بنفسه فى المكتب أو الفراش . حتى إذا دخل الليل طفت أفكاره على السطح ... كأنما عومتها الخمر ...

ويدير المفتاح الذى يحمله فى جيبه فى الباب الخارجى حتى لا يزعج أمى ، ثم يدخل . فإذا كان غير متعب ومَضَت بقية مرحه فى ظلمة المأساة فيتناول المشكلة باستخفاف لا يخلو من فلسفة أو فلسفة لا تخلو من سذاجة .

ـــ فى أحشائك جنين يا سيدتى ... نعم .. أنا أعلم ذلك . لكن . . موقفنا من الذرية مضحك للغاية . هو كما وصفه تماما « بكر أفندى » العربيد السليط اللسان ... قال لى ذات ليلة ونحن فى الحانة :

ـــ لماذا تخطف الحدأة كتاكيتك أيها المنحوس ؟! وضحك المخمورون ليلتئذ وأسقطت قدحى الفارغ على البلاط فتطايرت شظايا الزجاج ...

ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر ...

فتقول له أمى فى استسلام الذين يسألون عما يعلمون :

ـــ وفى ماذا تفكر ؟!

ـــ الذين لا تلد نساؤهم أطفالا قد يسرحوهن بالطلاق . وقد يضمون إليهن امرأة ولودا صالحة لإنماء الزرع . لكن ... ماذا يعمل الرجال فى النساء اللائى يموت أطفالهن ؟

ـــ طيب . وماذا تعمل النساء فى الرجال الذين يموت أطفالهم ؟! .

ـــ هذا مضحك حقا .. إن المشكلة كما ترين راجعة للقدر .. أليس كذلك يا سيدتى ؟ ... حدأة تخطف كتاكيت !! لعنة الله عليك يا « بكر » ... كم أتمنى أن يعيش لى ولد واحد لأرد على تهكماته ... إنه يؤكد أن البذور بطبعها غير جيدة ... ويقسم أن أطفاله يستحمون فى الحارة بماء المطر المتخلف ويعيدون تحت قشر البطيخ الذى يلقى من النوافذ بعد أن يلتقطوه من الأرض .. وأن أردافهم تبيت عارية طول الليل بلا لباس ولا لحاف ومع ذلك هأ .. هأ .. هأ .. لم تستطع الحدأة أن تخطف منهم كتكوتا .

ـــ آه ...

ـــ آ .. وفى الصباح .. وفى كل يوم .. أجلس على مكتب الحكومة لأؤدى عملى الغريب . إثبات المواليد فى دفتر المواليد !!

ـــ هيه ...

ـــ مائة مولود على الأقل أثبت كل يوم بقلمي المتواضع أنهم اتصلوا بالحياة (ثم يقول بكبرياء) : يعنى بعد أن يفرغ الله من قيد اسمهم ورزقهم فى دفتره ... يأتى دورى أنا !! ... أنا العبد الفقير العاجز الضعيف ... يأتى عملى بالنسبة للمواليد بعد عمل الله مباشرة ... (ثم يعلوه انكسار وذل وضعف ويقول) : كل هذا وأنا لا أولاد لى !

ويطرق ، وتسكت أمى لا ترد . إنها لا تستطيع أن تفرق بين الفلسفة والهذيان كلاهما فى ذهنها غامض غموض الآلة المعقدة : فخير لها إذن ألا تتكلم ... وتعاوده الحماسة بعد قليل :

ـــ الله نفسه ... لا أولاد له . لكن ... لم يحدث مرة أن الحدأة خطفت أحد كتاكيته ...

ـــ أستغفر الله العظيم ... سكر وكفر !!

ـــ هلم لننام . لا تحملينا على المزيد منهما . لعنة الله على « بكر افندى » . إن جو الحجرة الليلة مرتفع الحرارة . لا تنسى أن توقظينى باكرا فى الصباح !

ويعود إلى كتابة المواليد ، وفى المساء يذهب إلى الحانة ... حتى إذا ما وضعت زوجته مولودا استعاذ بالله من شر النعمة . ويلقى على وجهه النظرة الأولى ثم يتراقص فى وسط الحجرة .

ـــ عدد سكان الأرض زاد اليوم بضعة ملايين يا عزيزتى . هل تتصورين أنك ولدت ثمانية ملايين دفعة واحدة ؟! ... ستختفى الخرائب من المدينة منذ مطلع الشمس ...

فتقول أمى فى اعتزاز من ولدت ذكرا وضعف المرأة النفساء :

ـــ كفى ... كفى ... إن الفرحة تكاد تطير بك .

ـــ أنا لست فرحا . كنت أود أن أكون غنيا لأستطيع أن أفرح . الفرحة الحقيقية التى تتكاثر وتنمو فتفيض على قلوب الآخرين .. آه .. ليتنى كنت غنيا .. إذن لبنيت مستشفى للولادة ... ومستشفى لمعالجة النساء من العقم . ومستشفى لأمراض الأطفال .. ثمانية ملايين ولدتهم اليوم ...

وعند عودته ظهر اليوم ودخوله على الوالدة وهى فى فراشها يشرع فى التحدث عن وجوه الأطفال التى رآها فى قطار الضاحية :

ـــ كانوا كأنما ينظرون إلى ليسألوا عن فؤاد .. فى عيونهم نداوة الحب وعلى شفاههم حلاوة الدر أو طعم الشيكولاتة .. اسمعى ينبغى لنا أن نغير خطتنا فى تربية الأطفال . لقد أقسمت ليلة أمس قسما عظيما أن أنتهج معهم نفس الطريقة التى اختارها « بكر افندى » فى تربية مواشيه . سأجعل هذا الوليد ينام بلا غطاء ويستحم فى الحارة بمياه المطر المتخلفة على الأرض . وسأجمع له بنفسى قشر البطيخ ليعيد نحته . آه ... ويعيش !! .. يعيش فقط يارب !!

وتغرورق عيناه بالدموع : والأم فى الفراش راقدة على ظهرها بياض وجهها أقرب إلى بياض الثوب . وصدرها مشحون بالدر شأن كل منهل متفجر . وعلى شفتها ابتسامة رثاء وخوف وابتهال .

كان لهما فى صحراء (حلوان) ثلاثة هياكل صغيرة لثلاثة أطفال .. دفنوا على التوالى . فى بحر عشر سنوات فى لحد واحد .

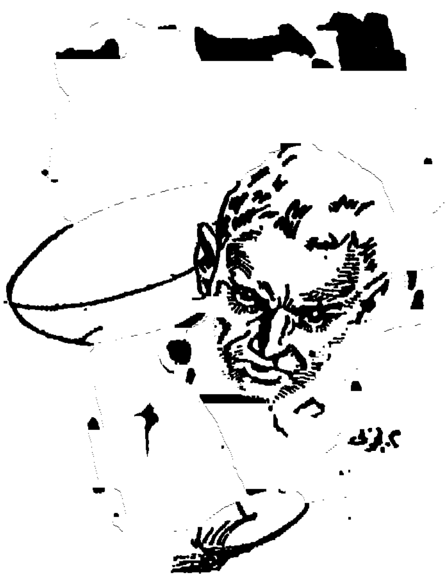
والأم امرأة غير ولود لا يتلاحق أطفالها ثلاث سنوات أو أربع بين الطفل والطفل .

ومنظر الهيكل الصغير مثير للغاية . أتلف أعصاب أبى عشرة أيام لم يفق فيها من السكر . على أنه لم يكن لأحد من أولاده بل كان لطفل غريب . لكنه لم يستطع أن ينسى القفص الصدرى الصغير « الذى لم يلوثه دخان السجاير ولا كراهة الناس » على حد تعبيره .

ويتغيب أبى عن الحانة بضع ليال متتابعة بعد ميلاد كل طفل . وعندما تخف الفرحة . تنبعث المخاوف . وتتمثل له الطمأنينة فى اتصاله بأصدقائه فى الليل . وتلعلع ضحكاتهم فى الركن المحجوز باستمرار ويهتفون عندما يدخل عليهم :

ـــ حمداً لله على سلامتك ... هل فات السبوع ؟! هذا هو ما ظنناه بالضبط !! تعال . تعال !!

ثم يصفقون بكف واحدة لأنهم يريدون أن يفقدوا رشدهم جميعاً على حساب أبى فى الليلة البيضاء .



٢

ولم يبر أبى بوعده ولو أنه أقسم قسما عظيما ...

كانا يخافان علىّ من نسيم الحديقة إذا زقزقت به المصاريع فى ليالى الحر . ويدثراننى ويبخراننى ويذهبان بى إلى الطبيب . فلما سألته أمى ضاحكة : ولماذا لا تربية كما يربى « بكر افندى » ، كما اتفقنا من قبل ؟ أسرع غير فاقد حجته قائلا : إنه من العبث أن نغرس الورد بطريقة الصبار أو نغرس الصبار بطريقة الورد . كنت أود ذلك من صميم نفسى لكننى أحافظ عليه حتى إذا ما فقدناه لم يكن هناك مجال لتأنيب نفسى على الإهمال ! .

ثم غيرت الأيام نظامها بالنسبة لأبوى تغييرا كاملا . لم يشأ الله أن يدعهما فريسة للقلق فلم يعد أبى يتوقع أن يطلب فجأة إلى (حلوان) لأن

ابنه في حالة سيئة . والأم لا تريد أن تحمل المسئولية وحدها . وأصبح يثبت أسماء المواليد بقلب أكثر طمأنينة وكاد ينسى أنه في يوم ما كان من المحرومين .

والذى حدث هو أن أمى بعد عامين من ميلادى شعرت أنها حامل . وإذا لم يكن هناك علاقة حقيقية بين العمرين ، ولا بين ما فى نفوسنا من مخاوف وما فى الخارج من حقائق ــ لكن يحدث فى الغالب أن عود الثقاب الوحيد كثيرا ما تتصدى له الريح فتطفئه ما دمنا محتاجين إليه .

فكأن الجنين الذى نبت فى أحشائها أصبحت حياته ضمانا لحياتى وقوته رصيدا لقوتى وإن كنت أنا تحت نور الشمس وهو لا يزال فى ظلمة الأرحام . وأكد أبى أن هجمات السعال خفت وكفت عنى . وأن الإسهال والإمساك تصالحا وتلاقيا معا فمنحانى طبيعة سليمة . وأن بكائى فى الليل لم يعد يزعجه كثيرا . كل هذا لأن أمى قد حملت ... هل تستطيع أن تدلنى على العلاقة ؟! وشيئا فشيئا ، وعلى التدريج نسيا الأجل الموعود الذى كانت الحدأة تخطف فيه كتاكيتهما . ونسيت الهياكل الصغيرة المدفونة فى صحراء « حلوان » لأنه ما حل الموعد الثالث لميلادى حتى انتعش البيت بصرخة لمولودة أخرى ... هى أختى (بدرية) .

ولم يبر أبى بوعده ــ مرة أخرى ــ ولو أنه أقسم قسما عظيما .. لا فى طريقة تربيته للطفلة ولا فى طريقة سلوكه فى الحياة . ظل كما هو . رجلا ذكيا وسيما قوى البنية والشخصية يثبت بقلمه أسماء المواليد فى النهار ويقرأ الصحف والمجلات وبعض الكتب فى أى وقت ويرجع إلى البيت عند الظهر . حتى إذا ما هبط المساء ذهب إلى الحانة ... إلى حيث يشربون ويتسامرون ويعلقون على حوادث النهار بإدراك ليلى مخدر .

ولم تستطع أمى أن تحوله عن منهاجه . كان يتركها وحيدة أيام زمان قبل أن تلد ويسهر فى الخارج . يفعل ذلك فى ليال من طبعها أن ترعب . من تلك التى شرع الناس فيها شرعة التجمع .. هى ليالى الحزن . حين يصاب البيت فى يوم من الأيام بالخرس عندما يخطف الموت طفله الوحيد .

ولم يكن أبى يتقبل عزاء . كان يذهب إلى هناك ليتعزى . فى الركن المحجوز باستمرار فى أقصى اليمين . ويتلقى كلمات التسلية بطريقة كانت تنسيه الهموم . كان معظمها سخرية من الموت . وبعضها نكتا تنتزع الضحكات من القلوب المجروحة . وكانوا يبذلون له الشراب على نفقتهم عدة ليال . ثم يركب أبى قطار الضاحية سكران رزينا محتقن الوجه وبين شفتيه سيجارة ويفتح الباب الخارجى بالمفتاح الخصوصى ثم يدخل فى الوقت الذى تكون فيه أمى جالسة إلى نافذة السلاملك . منصتة إلى حديث الريح والشجر . وكفها متكورة تحت خدها . والدمع متجمع بين الكف والخد . وإهاب وجهها ملتهب قليلا ...

وتخف أمى لملاقاته فلا تأخذ منه إلا الملامة .

لم يكن يقدر معنى الحزن والوحدة إذا اجتمعا .. ولا سكون الليل من مناغاة الأطفال فى البيت المعتكف الذى لا تدخله إلا أقدام أصحابه . وكثيرا ما كان سكره يهزه فيكلفها أن تبذل له حنانا زوجيا . وتلك مهمة شاقة سمعت النساء يتحدثن عنها بضجر من يجبرونه على الضحك وهم يجلدونه بالسوط .

ونحن لا ندعو ولا نبتهل ولا ننذر النذور إلا فى الأزمات . نطلب المعونة ونعد بدفع الثمن . حتى إذا ما أخذنا السلعة نسينا « الكمبيالة » .

لكن عندما تتجدد الحاجة يجد الطيبون والرقعاء على السواء فى نفوسهم حرجا من طلب المعونة مرة أخرى . وما دام الذى نطلب منه واحدا لا ثانى له فإننا نتجه إليه حتى ولو كنا مدينين !!

حين بلغت السادسة من عمرى كانت (بدرية) أختى فى الثالثة من عمرها . وفى صيف سنة من السنين خررت صريعا تحت حمى التيفود . ولما كان أبى قد ربانى على طريقة غرس الورد فى الحديقة كنت رفيق الحال . حتى إن الطبيب رآنى يومئذ غير أهل لخوض هذه المعركة . وقال متظرفا ليخفف الآلام عن قلب الأبوين :

ـ لماذا لم يختر هذا الصبى اللطيف مرضا يتناسب مع صحته ؟ مسكين .. (واستدرك) لكن ... لا بأس .. وإن كانت عربات الأطفال لا تشحن عادة ببالات القطن المحلوج ...

ولم يكن الطب يبذل معونة إيجابية للذين يصابون بهذا المرض فى ذلك الحين . ولذلك فإن المصاب به كان يجتاز التجربة بإمكانياته الشخصية فحسب .

ولم يطق أبى أن يرى هذه الحال ولا أن يسمع هذيان المحمومين . كان هذيان السكارى أخف وقعا على قلبه بل كان هو العامل الذى ينسيه المتاعب . ونشب الخلاف بينه وبين أمى وسهرا ليلة يذكران ما فات . وأطل عليهما الماضى المشوه من نافذة الليل البهيم . ولم يستطع أحدهما أن يبث الآخر مخاوف نفسه وإن بدت فى العينين . فظللهما الصمت . والصبى فى الفراش بطنه منفوخ ، ورأسه فى وهج . ونظرت أمى إلى أبى ولمعت عيناها فجأة وبشراسة قوية ثم قالت له :

ـــ ابق فى مكانك أنت أيها الكذاب ... لا تأت معى ... حذار ... ابق إلى جوار الصبى وسأذهب إليه وحدى ... لا تأت حتى لا يقفل الباب ...

وتركته وخرجت كأنها ستدرك قطارا . وظن أبى أنها أصيبت بلوثة ، فتبعها عن بعد . حتى رآها فى الحجرة الأخرى راكعة على البلاط العارى بركبتين تزحزح عنهما الثوب ورأسها قد سقط عنه المنديل وحلقها جاف ودمعها جاف . تدعو الله ألا يتلف ما يخصها فى ابنها (فؤاد) من أجل ما يخص زوجها منه ...

ـــ أنا امرأة ... ومسكينة يارب !! امرأة ومسكينة !! (هكذا كانت تهتف) .

ودخل عليها أبى وأنهضها من جثوها . وقال لها بغيظ يخالطه رثاء . وضعف متدثر فى قوة :

ـــ أنت كافرة أيتها السيدة ... هل تظنين أنه نصير الصالحين وحدهم ؟! .. قومى من على البلاط .. لمى شعر رأسك المنفوش .. إن العاصى إذا طرق بابه مرة بعد مرة فإنه يفتح له ... (وسكت ثم أردف) : تذلل العصاة أعذب فى سمع الله من بكاء النساء !! (ثم صرخ) : هلمى ... اذهبى إلى ولدك ...

وفى صباح اليوم الذى أعلن فيه الطبيب زوال الخطر عنى خرت (بدرية) محمومة فى مسائه . وفى هذه المرة بدت أمى أكثر رباطة جأش .

أو لعلها كانت مذهولة . أما أبى فقد أفلت منه الزمام وانخرط يبكى بشكل مرعب . إن بكاء الأقوياء مخيف كما لو سمعت أسدا يعوى عواء

القط . وأخذ يعدو فى الشقة كأنه ملسوع ، حتى استقر به الدوران فى حجرة أخرى . نفس الحجرة التى ركعت فيها المرأة المغلوبة . دخلها الرجل القوى وجثا على ركبتيه . وحاول أن يقول شيئا فلم يجد . فنهض وعيناه مبتلتان بالدمع وفمه جاف من الريق .

وعادت الهياكل الصغيرة تظهر لهما فى الأحلام . ورأى فى عينى « بكر افندى » صديق الحانة نظرة رثاء له فود لو أنه تهكم .

على أن هذا الذى حدث لم يجعله يبر بوعده كأن المصائب تصبرنا على المصائب . والجرح فى اليد قد يضجر وقد نحتمله فى اليد والرجل .

وكنت فى دور النقاهة فى مثل صفرة عود القمح وقت الحصاد . ليس فى وجهى إلا البوز والعينان . أجلس تحت شجرة الجوافة فى الحديقة الصغيرة أمام البيت أداعب الكلب وأنظر إلى السحاب وأفرك عينى لأرى الأشياء من حين إلى حين . أما (بدرية) فكانت فى الداخل . وكانت بطبعها رعناء « شعنونة » حادة الصوت عالية الصراخ لا تفتر عن وصف الأشباح التى تراها . وتقوم بنفسها لمطاردتها فى الليل فتمسك أمى بثيابها وهى تبكى .

واشتد بى السعال ذات ليلة و (بدرية) لا تزال مريضة فجن جنون أمى . وأحست كأن خطرا داهما يتسلل علينا من الباب فسهرت تبكى . ولما عاد أبى فى الليل بعد منتصفه وقعت بينهما الواقعة . قالت أمى :

ــ لن أعيش معك ... خذ ولديك إلى المستشفى لأرحل أنا .. سأجلس على قارعة الطريق وأتسول .. إن الشحاذ الذى هناك أسعد حالا منى ...

فيرد عليها بشرود السكارى وهدوء الأقوياء :

ـــ ماذا أصابك أيتها الحمقاء .. هل يغيب العقل دفعة واحدة هكذا!
ويتمدد على كنبة قريبة من السرير ويضع رجلا على رجل ويبدو وركه الأبيض . ثم ينظر إلى المصباح المتدلى من السقف بعين لا تطرف . وتقول أمى :
ـــ لقد أقلقنا الله فى سمائه بطلب الأولاد ... فلما جاءوا ...
ـــ هربنا منهم ؟! .. ألسنا نعيش معا حتى الآن تحت سقف واحد ؟!
ـــ إنك تكذب على الله ... .
ـــ أنت تلوثين عظمته بأحكامك التافهة . إنه غير غضبان ... أنت وحدك الغاضبة .. أتظنينه يحكم على الناس بهذه الطريقة ؟ .. مصيبة !!
وجعل يهز ساقه المعلقة على ركبته وهو مستلق على ظهره . ويردد بين الفينة والفينة على هفات النسيم وهزيز الشجر قوله باستمرار :
ـــ أنتم لا تعرفون عظمته ... لا تعرفون !! ...
وأخيرا ضجرت أمى . فأقبلت عليه فى غيظ لا يعرف الاحترام ثم صرخت فى وجهه :
ـــ إن فسقك أيها الكذاب هو الذى ابتلى هذا البيت بكل هذه المصائب . تب يتب الله عليك ...
وخرجت تجرى إلى حجرة أخرى . وظل على ظهره كما كان محملقا إلى السقف . وخيل إليه أن المصباح قد استحال قمرا وأن النجوم فرت من السماء . ثم أخذ يهمس وكأنه يحلم :
ـــ شتمتنى .. لقد طال لسانها فى الأيام الأخيرة حتى كأنه تمدد !! شتمتنى ... من المحتمل أن تضربنى فى العام القادم ... غدا نناقش القضية .

ثم أوى إلى فراشه فى صمت لا ينبس .

وفى الصباح خرج دون أن يتكلم وجلس على المائدة يأكل بعنف ويدفع الأطباق ويكسر الخبز بقوة من يكسر شيئا غير لين . وبكت أمى طول النهار . إنها أول مرة تشتم فيها أبى . لكنها كانت أسيرة أحلامها دائما . وإذا رأت مناما فى الليل ترقبت وقوعه فى النهار .

قبل موت أبيها رأت برج الحمام فى دارهم يسقط كأن شيئا اقتلعه من أساسه . ورأت الحمام يطير فى كل صوب . فمات الرجل وتفرق بعده الأبناء وانقسمت الدار إلى عدة دور ...

وقبل زواجها رأت أن فى يدها فردتى مقص وكأنها تركب واحدة على الأخرى وأدى المقص وظيفته ففرحت . وهكذا .

ومنذ ليلتين اثنتين رأت أن عينها رمداء وأنها تحس ألما وأنها تشد عليها عصابة غير نظيفة . فلما جلست تتأوه سمعت هاتفا يقول لها من حيث لا تراه :

ـــ نظفى العصابة تسلم العين . إن منديلك ملوث !!

ومن يكون المنديل إلا زوجها ؟! ومن تكون العين إلا الأبناء ! آه ... ليته يتوب عن السكر والحب أو واحد منهما أو هما معا ... إن له قلبا لا يشيخ أبدا دائم الخضرة مثل أشجار الكافور . لقد غضب منها . خرج لا يتكلم . وعندما يعود فلن يعود معه مرحه . وسيضع قرطاس الفاكهة فى صمت جائر ويدخل ليخلع ملابسه .

وقد حدث كل هذا . وأكلا بلا كلام . وعند دخول المساء ركب القطار إلى العاصمة فجلست وحدها تبكى .

* * *

وكان الركن محجوزا فى الخمارة ككل مساء والأصدقاء يتلفتون كأنهم يبحثون عن البقية . وأحد السكارى يداعب بائعة يانصيب . وصبى خادم يكسر ثلجا فى إناء . وارتفع صوت « بكر افندى » عاليا جهوريا يقول عندما لاح شبح أبى من المدخل :

ــ ها ... لقد حضر ... أتقى الفاسقين .

وابتسمت عدة أفواه أمامها كؤوس ، بعضها فارغ وبعضها مليان . وزحف أبى بكرسية فأكمل الدائرة ثم اتصل الحديث الذى كان قد انقطع ، فقال من كان يتكلم :

ــ ... وهكذا تاب ذلك السكير !!

قال أبى وهو يبتسم :

ــ تتكلمون عن توبة سكير ؟!

فقال ثالث :

ــ نعم . عن الخرافة التى تروى فى كل خمارة .

فقال « بكر افندى » :

ــ كل شىء جائز .

فاندفع أبى يقول لهم :

ــ فى نيتى أيضا أن أختم ليالى معكم بهذه السكرة . سأتوب .

فقهقه واحد فى الركن حتى كاد يتقيأ . وجأر « بكر افندى » بآهة شديدة وقال بعدها : « أنا عارف السبب » . على حين انطوى أحدهم فى جلسته كأنه شىء لين حتى أراح ذقنه على صدره ثم أخذ يهز رأسه فى تفكير .

وصمت أبى حتى تسكت الضجة لكن الرجل المطرق همس قائلا بوقار :

ــ هاكم شيئا جديدا ... (ثم أشار إلى أبى قائلا) : هذا خروف من خراف الله يغود إلى حظيرة الله !!

فارتفع الضجيج مرة أخرى . وغلب الضحك على الكلام . وسكت أبى لا يتكلم . وطلب له أحدهم كأسا . ثم جأر « بكر افندى » يقول :

ــ أنا عارف السبب .. هو حكاية الحدأة والكتاكيت ... ها .. ها . لكن ما العلاقة بين الشيئين أيها الإخوان ؟

فقال أحدهم وقد غلبه الحماس :

ــ وهل هذا عيب يا مغفل .. حاول أن تجد سببا معقولا لأى شيء ... وعندئذ ستفعله ببساطة ...

فانبعثت أصوات مستفهمة :

ــ مثلا ...

فأجابهم بسخرية :

ــ مثلا ؟! ... ها ... هذه الحالة التى نحن فيها . مجيئنا إلى الخمارة ... لو لم يكن سبب مجيئنا إلى هنا معقولا جدا ما سعينا على أظلافنا . ليكن معقولا عندنا وحدنا !! ليكن !! ... اقنع نفسك بالعكس تجده معقولا أيضا ، وعند ذلك ستظل فى بيتك لا تخرج منه .

قال أحدهم :

ــ كلام فارغ .

ــ الفارغ على وجه الأرض عقلك وجيبك . أنت غبى مفلس . اسمع : العقيدة يا بنى لا تقاوم . وقد يصعب عليك زرعها لكن اقتلاعها أصعب .

قال « بكر افندى » معلقا بخشونة :

ـــ يعنى من الممكن أيها الفيلسوف أن تكون توبة السكير سببا فى نجاة أولاده من الموت ؟ أفدنا أفادك الله !

فسكت الفيلسوف ريثما يفكر . وصب كأسا لأبى على نفقته ثم استرخى فى قعدته كأنه وسادة مثنية . ثم سأل :

ـــ لماذا يقبل الله دعوة المومس واللص والسكران ؟ لماذا ؟!

وهل هذا سؤال ؟ سميع مجيب .

ـــ باستمرار ؟

فأجاب « بكر افندى » بإصرار :

ـــ نعم باستمرار . ولماذا لا ؟!

ـــ لأنه يسمع كل دعاء ولا يجيب كل دعاء .

ـــ وافقنا ! إذن فلماذا يقبل دعوة المومس واللص والسكران ؟

ـــ إنه يربت على أكتافهم كما تربت على كتف ابنك العاق . حتى إذا لم يقومه التربيت قومته باللكمة .

ـــ هاهاها ... سكران والله العظيم . طيب . وإذا كنت تجد لأعمال الناس أسبابا معقولة فلماذا لا تحاول أن تجد لاستقامتك سببا معقولا فتتوب ؟

ـــ السبب موجود . لكنه كالآلة الخطرة لا أستطيع استعمالها .

ـــ هيه ... .

ـــ هل يؤلمكم أن ننقص واحدا . دعوا الرجل لحاله فإنه ينشد لقلبه الطمأنينة . تحاولون أن تقتلوا مخاوفكم فتقتلوا معها أنفسكم .

فقال أبى :

ـــ كحكاية إحراق القمح لتطير عنه العصافير .

ـــ تمام . كأسا أخرى من كؤوس الوداع يا صديقي ... اسمع .. أنا شخصيا أحس بالفرح كلما نقص قطيعنا واحدا ، لأنه من الجائز أن يلحقني الدور .

فسأل « بكر افندى » فى شبه حزن :

ـــ ولا يكون هناك خمر ولا سكيرون ... مستحيل !!

فرنت فى جوانب المكان ضحكة إجماعية لكنها قصيرة ما لبثت أن تلاشت كما تتلاشى الموجة . وأعقبها صمت طرزت حواشيه النظرات وزفير التدخين ووقع كعوب الكئوس على رخام المناضد . كان أشبه ما يكون بالأسى . فهل نأسى على مخازينا وعيوبنا وأمراضنا إذا حاولنا أن نشتبك معها فى معركة حاسمة ؟!

ثم نسى الموضوع الشخصى . موضوع أبى . وانخرطت الجماعة فى توديع حار لم يقطعه كلام كثير . كان عملا خالصا صرفا . كان شربا مستمرا أحال فيلسوفهم العظيم إلى مخمور عظيم ، فانطوى على الكرسى كما تنثنى الوسادة ، واضعا ساقا على ساق وشرع يدندن بأغنية من أيام شبابه كانت تغنيها الحبيبة فى أحضانه . وأين هى الآن ؟ قال :

ـــ إنها هيكل عظمى يحتضنها هيكل عظمى آخر .

فجاء صوت يقول :

ـــ هيكلك يا أستاذ ؟ هأ .. هأ .. هأ ..

ـــ عسى أن تكون أبواب السماء مفتوحة هذا المساء لدعاء السكارى ...

وسأل أبى :

ـــ هل تذكر التاريخ الذى طلبت فيه من الله فاستجاب لك ؟

فأجابه :

ـــ هو تاريخ ميلاد ابنى . وقد مضى منذ شهر .

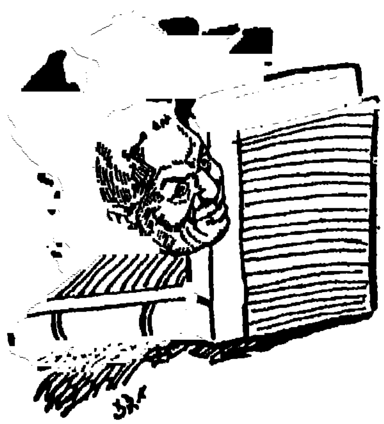
ـــ آه ... إذن ... على أن أنتظر أحد عشر شهرا أخرى.ليتنا لا ننسى . لكن ...

ثم سكت كأنه نام !!

وفى أخريات الليل عانق السكارى رجلا يودعونه . وبكى بعضهم . هل رأيت سكران يبكى ؟! .. وانصرف أبى لا ينظر إلى الوراء كأنه يخشى أن تجبره وجوههم على عودة قريبة . وعندما عبر عتبة الخمارة سمع صوت « بكر افندى » الجهورى الغليظ يصيح بأعلى ما فيه :

ـــ خروف من خراف الله عاد إلى حظيرة الله ...

وتخللت هذه الكلمات ضحكات كثيرة .



٣

وفى الحجرة العلوية المطلة على فضاء الحديقة ، الوحيدة على السطح كانت حركة إصلاح وترميم قائمة على قدم وساق . ثم جددت دورة المياه القريبة منها . ومن نافذتها الشمالية بدت للعين مشاهد ساحرة . الجبل والشجر وطريق المرصد وشريط السكة الحديد .

وعندما يسكن الليل تهفهف أرواح ملائكية على مقربة منها . وكان أبى يراها وحده . يراها بقلبه وجنانه ويناديها بلسانه ويمد إليها كفين تبدوان صغيرتين ككفوف الأطفال بالنسبة للقوة التى يستنجد بها أبى .

كان أبى مستميتا فى توبته . وفرحت بذلك أمى وإن ظل مخاصما لها لأنها هى التى حالت بينه وبين الخمر . كان ناقما نقمة اللص على القمر لأنه يريد الظلام . وكان يؤمن بالفعل ورد الفعل ، لذلك أخذ يجهز للتوبة أدوات كما تحشد اللعب للطفل حتى لا يبكى فى غيبة أمه .

وفى خزانة خشبية فى الحجرة العليا وضع أورادا وكتب تصوف وسجادة وسبحة . وأخذ يتردد على الأضرحة ويستمع إلى المواعظ

ويسأل عن الفرق بين السنة والواجب . وبدا عليلا متضعضعا مسكينا وحدثتني أمي أنه كان يبكي في وحدته .

كان مشتبكا مع نفسه في عراك غير متكافئ ، يريد أن ينقي دمه من الكحول وأن يفصل نفسه عن ذكريات أعوام طويلة . وأن يعتاد شيئا فشيئا على أن « يرى الليل وهو وحيد » كما كان يقول . ولما سأله بعض الناس عن معنى ذلك أكد أن ذلك شيء لا يحسه إلا الذين جربوه فحسب ، فالمريض والسكير والعاشق يصعب جدا عليهم أن يقابلوا الليل وجها لوجه دون أن يكون معهم أحد .

لذلك فإن تسبيحاته كثيرا ما كانت ترتفع بطريقة هستيرية ويظل في الحجرة العليا يفعل ذلك حتى يهبط في أخريات الليل . كان كالذي يدفع المخاوف بالغناء على الطريق الموحش . وكثيرا ما كان يلعن الماضي لا لأن الحاضر أصبح حلوا نقيا صفيا ، بل لأن الماضي القوي لا يزال مسيطرا على حاضره لا يريد أن يترك زمامه .

وفي هذه الأثناء كنا نشب ونترعرع أنا (وبدرية) . واتصلت رعايتنا بأمنا أكثر وأكثر حتى تخيلت أن أبي غائب أو أنه غريب .

وكثير تردده على الأطباء واستحال وجهه الوردي إلى شيء أشبه بلون المنزوفين . وحادت طبيعته عن « المتوسط » فكانت أمي لا تراه إلا مستسلما أو جامحا .

وفي إحدى الليالي بكت له أمي بدموع غزيرة :

ـــ لا أحب أن أراك هكذا !! .. إن صحتك تسوء . كنت تريد أن يعيش ابنك ولو جمعت له قشر البطيخ من الحارة ... وأنا كذلك بالنسبة إليك ... أنت ...

ثم قطعت كلامها وانخرطت فى البكاء . فقال أبى وكأنه يحلم :

ـــ تريدين أن أعود إلى سيرتى الأولى ؟ ... هيه ... أنا أشعر كأن القوة تنسحب من جسمى كما تنسحب الجيوش فى الظلام ... أبات وأصبح فأرى موقعا خربا ...

وأطرق وأشعل سيجارة . وكانت ذقنه طويلة ، وهندامه غير معتدل ، والسبحة أمامه على المنضدة القريبة . وظلت أمى تستمع لكنه أخذ يدخن فى صمت دون أن يتكلم . وعندما دخلت عليهما أحسست أن فى جوهما شيئا غريبا حين نظرا إلى فى وقت واحد . والتقت نظراتهما من فوق فصرت كأنى تحت غصنين متشابكين ثم مالبث أبى أن قال :

ـــ كل هذا من أجلكم ... نعم .. لكن ... منذ أربعة أشهر أو تزيد وأنا أبحث عن العلاقة بين الشيئين ـــ كما قال « بكر افندى » ـــ فلا أجدها . ما العلاقة بين الخمارة والحدأة والكتاكيت؟ و ...

فقاطعته أمى مشفقة عليه قائلة بانكسار من يجبر على اتخاذ قرار :

ـــ ليس هناك علاقة ... أبدا .

ـــ تجاملينني ؟! (وتتنهد) .

فأحست أمى كأنها أمام طفل . فقد كانت شخصيته مطمورة تحت ركام من الأنقاض لا يعرف جنسها . فعادت تقسم أنها تقول الحقيقة وأنها تقتديه بنفسها وبنا أيضا إذا لزم الأمر . ثم قالت :

ـــ المسألة مسألتك الشخصية . لا تعذب نفسك !

وبات ليلته فوق . فى الحجرة العليا . لم يشأ أن ينزل . كان يريد أن يختلى بأفكاره . على أن الأرق كاد يجننه . ولم تخفف الأوراد ولا كتب التصوف ولا سير الصالحين من حدة الصداع الذى يصاحبه .

وكان يتسلل فى بعض الليالى إذا كان فى المدينة ، فيمر على الخمارة فى تلصص ذليل ومن وراء الزجاج المقفل فى الليل البارد يلقى نظرة شاحبة على الركن . وقد تصل إليه قهقهات « بكر افندى » الطويل العملاق الجهورى الصوت . ثم ينسحب فى رفق ذليل أيضا قاصدا إلى محطة القطار حيث يركب إلى (حلوان) وتتهاوى على رأسه المنخوب عدة خيالات : فيها رجل يعبر باب الخمارة بعد غيبة ستة شهور هزيلا نحيلا مريضا فيهلل فى وجهه الندماء ويصفقون ويسقونه كأس التحية كما سقوه كأس الوداع . وبعد فترة يبدأون فى التنكيت عليه والمناوشات معه ، وينثنى الفيلسوف النحيف كالوسادة ليضع للقضية « فقها » جديدا ... فيقول شيئا ما !

وفى خيالاته أيضا حدأة وكتاكيت وأطفال يمرضون . وقوة خفية عملاقة أصلها فى الأرض ورأسها فى السماء تتربص به إن عاد إلى الخمارة لتسقط عليه « بصقة » واحدة فيصاب بارتجاج المخ . ويغيب عن الوجود . ثم ذكر كتب الأوراد والأدعية ...

ثم تحلب ريقه حين ذكر النبيذ . وعشوة أول كل شهر على المنضدة بين الإخوان . والسيجارة تحترق وحدها وهو يقص « حدوتة » . والخزعبلات اللذيذة التى تصنع إطارا أجمل من الصورة والتى هى قوام كل الملذات ...

وتوقف على ناصية مظلمة بالقرب من « المزلقان » والجرس المتواصل الدقات ينبه المارين لخطر القطارات . وسور إحدى الوزارات تئز من ورائه الأشجار . ومحطة (حلوان) قريبة منه . وكان يسأل نفسه :

ــ هل أعود ؟! إنهم أوحشونى !! لماذا لا أدخل فأسلم ... وأراهم وأخرج . أو أجلس فآخذ فنجالاً من القهوة . أوحشونى ! آه ... إن المبادئ تكلفنا كثيرا . هل المسألة مسألة مبدأ أم هى بر بوعد ووفاء بنذر ؟ لا أدرى !

ثم يتحرك ... نحو المحطة . عائدا أدراجه فيدخل حلوان النائمة . وتكون أمى نائمة أيضا فيستلقى فى الفراش فى صمت ، ويشعل سيجارة وهو راقد وتتوهج قمتها فى الظلام . وقد يوقظ دخانها نوم أمى ... وينفخ وينفخ ، ثم يطفئها ويستسلم للأفكار .

* * *

على أن أمى كانت تحب الفريقين .

كانت كمن أجبرته الظروف على أن يختار بين جارحتين من جوارحه فظل ممسكا عن النطق لا يستطيع أن يفاضل بين السمع والعين . وعلى الظروف التى أجبرته ، أن تحكم هى بالنيابة عنه . فليعد أبى إلى معاصيه وليكن ما يكون ، فقد أصبحت مغلوبة .

وفى إحدى الليالى غاب فى الخارج . وظلت أمى ساهرة فى فراشها . وكانت تخرج بين الحين والحين إلى غرفة أخرى لتلقى نظرة على أنا و (بدرية) فإذا بنا نتنفس فى هدوء فتعود فى صمت . وصفر القطار الأخير قبل دخوله المحطة فنفذ صفيره إلى قلبها كأنه المخراز . إن لم يعد فى هذا القطار فإن مكروها يكون قد نزل به . يا ويحها ! .. إنها كحارس الكنز يحس دبيب اللص مع كل نأمة . حتى سمعت بابا يصر . وعادت إليها الذكرى القديمة . وتوقعت أنه سيدخل عليها ورائحة الخمر تفوح من أنفاسه لكنها سمعته يصعد إلى فوق حيث الحجرة التى اتخذ منها « خلوة »

للعبادة . كان فيها فراش صغير وأدوات كثيرة . ويستطيع أن يتخذ منها مرقدا . وقد فعل . وبات هناك . ولم تستطع أمي أن تقطع بشيء . لكنه بدا وقت الصباح منهكا أشد شحوبا مما كان ، وإن ظهرت نفسه أكثر قوة .

. وبدا طوال مدة الافطار فى ربكة من يحمل خبرا يريد أن يتخفف منه ثم خرج إلى عمله .

: وهبط المساء فتسلل وخرج ولم يكن فى يده سبحة ولا فى جيبه كتاب . وداعبه الكلب عند الباب الخارجى فركله فعوى وعاد فانزوى تحت شجرة الخروع . وكانت أمي فى نافذة السلاملك تراه من خلال الأغصان وفى عينيها دموع تحاول أن تغلبها .

وصر الباب — بعد منتصف الليل — وعادت الذكرى القديمة . وتوقعت أمي أنه سيدخل تسبقه أنفاسه المخمورة . لكنه صعد إلى فوق .

وظلت تتقلب ولم تعد تدعو الله !! وبدت المسألة كأنها تستعصى على الحل . ثم فرضت أنه يسهر لكن فى غير الخمارة . وعند الصباح جلسنا إلى الطعام وكان أبي فى خمود وانحلال كمن قضى ليلة فى الملذة يبتسم لكل كائن ولكنه خجلان .

وفجأة وهو يلبس ملابسه قال لأمي بطريقة من يريد أن يتخلص من جثة فيرميها فى أى مكان . قال لها وهو يبتسم :

— لماذا لا تسألينني عن سبب غيابى كل ليلة ؟!

فلم ترد . وانطبعت على شفتيها ابتسامة عميقة المدلول وفى عينيها عناء وتسليم . فقال وهو يضع الطربوش على رأسه مغطيا به معظم جبينه :

— (رجعت « ريمة » لعادتها القديمة) ... (وكأننا يا « بدر » لا رحنا ولا جينا ..) .

واندفع نحو الخارج ينهب الصالة بخطوات واسعة وهو يدندن المقطع الأخير ويطوح فى الهواء عصا خيزرانية عوجاء :

ـــ « لا رحنا ولا جينا ... لا رحنا ولا جينا ... » .

ثم قص على أمى تفاصيل ما وقع فى ليلة من الليالى التى يعود فيها بوعى لا بأس به .

* * *

لو أننا نشعر بالزمن لضقنا بأعمارنا ذرعا ...

وهذه هى التجربة التى أحسها أبى فقد عاش يحسب الساعات كأنه « منبه » . كان يعبر الزمن وهلة بعد وهلة كمن يعد أحجار البناء فى سور طويل لا ينتهى أبدا . وكان يشعر بالدوخة وبالأسى . ويخيل إلى أن كل ذلك لسبب مجهول . والسبب الحقيقى واضح لكنه يتنكر . كان يضع على وجهه قناعا ليكون الأسى أنكى وأبقى .

وقهقه أبى وهو يلمس هذه الحقيقة . ثم قال :

ـــ هكذا ندفن أحبابنا ونبيت ونصبح فيخيل إلينا أننا لم نرهم منذ أجيال ... ها ... هذا لأننا نعيش بعدهم فى كل وهلة ... آه ... نعد أحجار البناء فى السور الطويل ... الطويل ... الذى لا ينتهى أبدا !!

ثم أحس كأنه لا ينتظر شيئا . وما معنى ذلك ؟! ... لا بد لنا أن ننتظر شيئا ما فى حياتنا وإلا استحالت إلى فراغ قاتل . والذين ينتظرون دورهم فى صف القتلى خير من الذين لا ينتظرون شيئا أبدا . آه ... ومنذ ترك أبى الخمر شعر كأنه لا ينتظر شيئا فضاق بالحياة .

يعس النوم فى الساعات التى تتوهج فيها يقظة الناس . وفى الليل والناس هاجعون ـــ يؤرقه الصداع والتفكير .

وكانت ليلة ندية . ونسمات الخريف تتنفس فى جو المدينة تنفسا لا مثيل له . وأبى فى قطار (حلوان) يضرب أخماسا فى أسداس ويحاول أن يجد لموقفه تفسيرا منطقيا .

ثم ابتسم لنفسه :

ـــ لا داعى للتفسير المنطقى أبدا . إن المنطق يتلف الأشياء .. لماذا وضعوه ؟! وإلى أن يثبت أن هناك علاقة بين الكأس والحدأة والكتاكيت فسأظل أشرب ... طيب . لماذا لا يموت أولاد « بكر افندى » ؟

ثم ولج أبى باب الحانة وبدا على باب العتبة ...

وارتفع صوت جهورى غليظ عال يقول :

ـــ الحقوا ... ها قد عاد إلينا أتقى الفاسقين !!

وكان المتكلم هو « بكر افندى » . ولم تنفتح الأفواه دفعة واحدة لأن شيئا من الذهول خيم على أصحابها وانثنى الفيلسوف النحيف كأنه وسادة حين وضع رجليه على الكرسى وشبك حولهما ذراعيه وبدأ يقول بصوت كأنه صادر من عالم بعيد :

ـــ هذا خروف من خراف الله ...

فردوا كما ترد « المجموعة » :

ـــ فر من حظيرة الله !

وشعر أبى بالخزى ... كالصبى الغاضب المضرب عن العشاء حين يتقدم بلا دعوة وقد كان أبواه يرجوانه فلا يجيب . ثم شرب كأس التحية على حساب الفيلسوف . وبدأوا يشعرون أن الدائرة قد كملت فقد كانوا أشبه شيء بالطوق المفتوح . وجعل أبى يتحدث عن ذكرياته أيام التوبة وكيف كان شنيعا جدا فى العمل وفى البيت . كان لا يفرق بين الذكر

والأنثى وهو يقيد الأسماء فى دفتر المواليد وكان لا يحسن أن يخاطب أحدا .

قال الفيلسوف :

— وقد أمرنا الله أن نعامل الناس بالحسنى . ولما كان من الضرورى ... آ ... من الضرورى ... أن نجد سببا معقولا لكل شىء نعمله ...

فأكمل أبى :

— فلنعد إلى ما كنا فيه حتى لا نؤذى الناس . ذلك أسهل .

وقال أحدهم :

— على أننا كنا ندعو الله دائما أن تعود إلينا .

وسأل آخر وصوته متلعثم :

— ولماذا يستجيب لدعاء من هذا النوع ولا يستجيب لآخر على عكسه ؟ (وحملق بعينين حمراوين يبحث بهما عن الإجابة فى وجوه السامعين) .

فنظروا جميعا إلى الفيلسوف الهادئ بالقرب من الركن حتى أجاب فى ابتسام :

— لو توفر لديه سبب معقول لاستجابة العكس لفعل ... المسألة من أولها إلى آخرها تنحصر فى توفر السبب ...

فضجوا بالضحك وسأله أبى :

— وما رأيك من جديد فى قضية الحدأة والكتاكيت . هل هناك علاقة بينها وبين ما نفعله الآن ؟

وكان على وجهه خوف يريد أن يخفيه أدركته قلوب الجماعة وإن لم تره عيونهم .

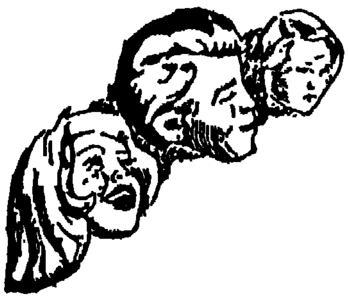
فقال أحدهم وهو يصب له خمرا :

ـــ هل لا تزال خائفا ؟!... اشرب ... أطعمهم كما يطعم « بكر افندى » مواشيه وعندئذ يصبحون مثلهم . هل تعلم ما حدث لهم ؟!

ـــ لا .

ـــ لقد رأت أمهم أحدهم ممسكا بحدأة وكان يقطع من رأسها وهى حية !

ها ... ها ... ها ...



٤

بينما كانت هذه الفترة من حياة أبى تنضم إلى ماضيه ليلة فى إثر ليلة كان الزمن يتمخض عن حادث غريب بالنسبة لأولاده . حادث لم يكن لهم على بال .

فقد أعلنت أمى ذات مساء أنها حامل ...

وقهقه الرجل قهقهة المفلس حيى تمتلئ خزانته بالمال . لكنه كف فجأة حين تذكر أن مستوى المعيشة آخذ فى الانخفاض بالنسبة للأسرة . الأفواه تتكاثر والدخل ثابت لا يزيد . ومطالبه الشخصية تنمو يوما بعد يوم . وإذا اشتبكت معه أمى فى عراك وحاد عنها عادت إليه ذليلة . شخصيتها ذائبة فى شخصيته ذوبانا شديدا .

حقيقة إننا نملك البيت الذى نسكن فيه . لكن ذلك لا يكفى . فأبى مرتبه ضئيل وأمى لا دخل لها . وحياتهما الاقتصادية قائمة على الستر خالية من الاحتياط . فإذا وقعت فى البيت مفاجأة ما على غير انتظار. كانت أمى تلجأ إلى حلاها الذهبية فتودع إحداها فى بنوك الرهون ثم تستردها بعد مدة .

وفى الوقت الذى بلغت فيه سن التاسعة وكانت (بدرية) فى السادسة ، ولدت أمى طفلة سمتها (سميرة) .

كان ذلك يوم جمعة . استيقظت من النوم فسمعت بكاء صغير يخرج من حجرة أمى . ورأيت بعينى شبه ما كان أبى يعمله أيام ولدت أنا . رأيته يتراقص من الفرح كما تتراقص كرة الكاوتش بين الكف والأرض . خصوصا عندما لمح جمال وجهه على وجهها الصغير . كان فى الأصل مغربيا صافى اللون . وحين يبدو صحيحا يخيل إليك أن ماء العنب يترقرق خلف بشرته . وأمى مصرية صفراء فى لون حبة القمح . ومن تزاوجهما كانت وسامتى ووسامة أختى (سميرة) .

أما (بدرية) فقد نزعت فى وراثتها إلى أصل بعيد . فلم تكن العين قادرة على أن تلتقط وجه شبه بينها وبيننا . ترابية معفرة . (شعنونة) كثيرة الصراخ . تبدو الحدة فى عينيها كأنها تتربص لشىء .

وحين ذهب أبى إلى الخمارة مساء ميلاد (سميرة) ضحكوا وصفقوا لسماع الخبر وفقدوا وعيهم على حسابه . وأعلن أبى فى منتصف السهرة أنه سيعاود التوبة .

فقال « بكر افندى » :

ـــ ها ... سيدخل خروف الله مرة أخرى إلى حظيرة الله . لكن ... هل وجدت لذلك سببا أكثر معقولية من التصوف ؟!

فانطوى الفيلسوف على كرسيه كما تنطوى الوسادة وبدأ يجيب بالنيابة عن أبى ، وعن كل شخص :

ـــ يظهر أن للمسألة وجها آخر ...

ـــ هيه ...

ـــ لا يكفى أن تجد سببا معقولا وتقنع به ... يجب أن يقهرك السبب فذلك أضمن لك .

ـــ مثلا ؟ ...

ـــ مثلا ؟! ... لنفرض أنك أردت أن تشنق نفسك فماذا تعمل ؟ تضع الحنية فى رقبتك الكريمة أولا وأنت واقف على الكرسى . لأنك تريد أن تتخلص من الحياة التى لا تطيقها . مفهوم ؟

ـــ مفهوم .

ـــ حسن . تضرب الكرسى برجلك ليتعلق جسمك فى الهواء . تحس ـــ وقانا الله السوء ـــ بكبسة الموت على أنفاسك وعندئذ تأخذ رجلاك فى البحث عن الكرسى الذى دفعته منذ وهلة . فلو فرضنا أنها حصلت عليه ، إذن لوقفت عليه من جديد . وعندئذ تنسى أن السبب معقول . لكن الكرسى بعيد . فيصبح السبب « المعقول » « معقولا وقاهرا » فى وقت واحد . لذلك ... عليك رحمة الله !!

ها . ها . ها .

وظلت الحجرة العليا مقفلة إلا فيما ندر . وبنيت تجاهها حظيرة للأرانب . وكمنت كتب التوبة فى الخزانة الخشبية وبعثرت أختى حبات السبحة ذات يوم . وعبث بعض الفيران بخيوط المصلى . وواظب أبى على برنامجه وواظبنا ثلاثتنا على النمو . وانطبعت هذه الفترة من حياة أسرتنا بطابع عادىّ فلم تقع فيها أحداث جسام ، فغدت أيامها فى أنظارنا أشبه بوجوه المارة فى الشارع المزحوم . وجوه عادية خالية من كل ما يثير . لذلك أحسست ذات يوم ـــ وكأنما حدث ذلك فجأة فأيقظنى من النوم ـــ أن أبى ينادينى وهو راقد على الكنبة ظهره إليها ووجهه إلى

السقف وقد ركب ساقا على ساق . ناداني وقال لي وكأنه يفكر في معنى ما يقول :

ــ فؤاد ... فؤاد !!

ــ نعم يا بابا .

ــ هل تدرى يا بنى . هل تدرى ؟!

فهززت رأسي مستفهما . فاستطرد :

ــ هل تدرى أنك اليوم ابن سبعة عشر عاما ... ياه ... كيف مرت هذه الأيام ؟! يا سلام !!

ولم أجد جوابا ولا تعليقا . فجلست على كرسي قريب ووجهي إلى الحديقة أسمع نباح الكلب وأرى ترنح الأغصان . وفي رائحة الجو آثار من تنفس النبات الندى . وعادت ملامح أبي إلى سكون ليس له قرار لا يعلم ماذا في داخله . سكون حملني على أن أسأل نفسي : وهل يعتبر بلوغي سبعة عشر عاما من المسائل الضخمة . ثم همست : وماذا في هذا ؟ إن (بدرية) اليوم بنت أربعة عشر عاما و (سميرة) في التاسعة . فلماذا لا يقول لهم مثل هذا الكلام ؟!

ودخلت أمي فأخرجته من أفكاره . وكان المساء قد دخل . وعلى وجه أبي علامات قلق شأن كل من يتناول شيئا في موعد منتظم . وحسبته مهموما فسألته عما يعانيه . خصوصا لأن أحاديث التوبة كانت قد عادت إلى الظهور في خلواتهما من جديد . وكانت أمي لا تعلق على الأحاديث لأنها في الحقيقة كانت يائسة . وإن أدركت بقلق رغم أن مطالب البيت آخذة في التزايد وأن شرابه قد أصبح حراما مرتين . لكن الهجوم على أبي لم يكن شيئا سهلا .

جلست أمي على حافة الفراش وفي يدها جورب تلفق كعبه وطأطأت رأسها تعمل في صمت وبدا وجهها الوسيم طويلا أكثر من العادة . وكانت عين أبي تنظر إليها . وصوت الأختين في الحديقة يهب مع نسيم الليل . تضحكان في مرح وخلو بال جعل أبي يمصمص بشفتيه ويهز وركه المعلق .

وغرزت أمي الإبرة في الجورب ورفعت بصرها إليه وهي تبتسم :

ــ فيم تفكر يا بو فؤاد ؟

فقال بكمد :

ــ في الأولاد !!

ــ مرة أخرى ؟! ... كنا قد نسينا الموضوع !!

فاستطرد بكمد أشد :

ــ كنت منذ وهلة قبل أن تدخلي علي ... أقول لفؤاد : إنه قد بلغ السابعة عشرة .

ــ من عمره الطويل ...

ــ آه ... وهناك بنتان تلعبان في الحديقة . لقد تغيرت الأحوال يا سيدتي (وضحك) إن كثر الطعام قلت الأفواه ، وتكثر الأفواه إن قل الطعام !! ... حكم ... قرش أو كرش !!

وجعل يهز وركه المعلق ويمصمص ويحوقل . وأمي تعمل الإبرة في الجورب في حياد امرأة تلمس القضية من بعيد حتى لا يدركها الأذى .

وصرخت (سميرة) فأطلت أمي من الشباك فإذا (بدرية) قد لطمتها فأدمت أسنانها . وبكت الصغيرة في حرقة ودلال ودعت أمي على بنتها الكبيرة بقصر العمر . ثم عادت إلى حيث كانت تجلس ودخلت علينا

الصغيرة وظلت الثانية فى الخارج . وكان أبى لا يزال مستلقيا وعيناه فى السقف كأنما يقرأ شيئا فانفرجت شفتاه عن ابتسامة وعاد يقول فى ثقة وتقرير .

ـــ لا يجب أن نقلق على مصايرنا . هل كنا نعلم أيام كنا نبكى على الوفاة وسقوط الجنين أن فى أصلابنا وأرحامنا مصائب سيعض بعضها بعضا تحت أشجار الحديقة ؟!

وانفتح ضاحكا . ثم استوى جالسا على الكنبة وصفق بكفيه :

ـــ حكم والله العظيم !! .. وكنا أيامها ننذر نذورا شتى : أن نجمع لهم قشر البطيخ من الحارة وأن نجعلهم يستحمون بماء المطر . وأن نربيهم كالمواشى . لم يكن هناك داع لكل ذلك .

ونظرت أمى ولم ترد . ووضعت فردة جورب وأخذت فردة أخرى .

قال أبى :

ـــ رقعى يا سيدتى رقعى . ثمرنى حتى لا تنسى !! غدا ستتسع الرقعة حتى تشمل الثوب كله !! رقعى . لقد حملت (سميرة) على كفى ذات يوم وأنا فى السطح أمام حظيرة الأرانب ودعوت حدأة كانت تحلق لتخطف أرنبا ـــ أن تتعشى (بسميرة) قلت لها « خدى كتكوتك يا حداية » واستحلفتها بأولادها فلم تستمع إلى . آه ...

ثم ما لبث أن تقلب تقلب القلقين ، وقام فلبس وانصرف إلى حيث يبعثر النصف الأول من الليل مع أصحابه ويعود لينتظر الليلة الأخرى .

* * *

وأخذ أبى يفكر فى التوبة تفكيرا حقيقيا . كانت لها أسباب أخرى تولد فى نفسه وتشد من عزمه . أسباب حسية لا علاقة لها بالروح . منها أن

قوته الجسمية أخذت فى الانحطاط وقوته المالية أخذت فى التدهور . وصمتت زوجته عن مفاتحته فى الموضوع فلم تتح فرصة لعناده أن يظهر . ومنها — وربما كان ذلك مهما — أن الجو الذى يسهرون فيه أمسى مملا بليدا لا يثير المرح إلا بجهد ، فقد انقطع أحدهم بسبب المرض . وخر الفيلسوف العظيم ذات ليلة صريعا تحت عجلات إحدى العربات وهو يعبر الشارع فحملوه فاقد النطق ولم يفق من السكرة . وحاول « بكر افندى » الطويل العملاق الحيوان ذو الصوت الجهورى أن يجلس مكانه وأن يسد ثغرته فبرهن لهم بطريقة ملموسة أن الجبل على ثقله قد ترجحه (فكرة) . وفقدت أفكار الليل رونقها . وذهب التمويه اللذيذ الذى كان الفيلسوف يعقده حول كل قضية . وشعر المجتمعون فى الركن المحجوز كأن مصباحا قد انطفأ وكأن الخمر فقدت جزءا من مفعولها ... فجعلوا يفكرون .

وانقطع أبى عن الذهاب فى صمت كأنه لم يشأ أن يبوح بتجربته إلا بعد النجاح . لكن ذلك كان محالا ، لأن مداراة اللهب والدخان أمر غير معقول . ولم تدم التجربة إلا ريثما أحس من جديد أنه يفقد مع مطلع كل شمس جزءا من قوته . فعاد إلى الخمارة بنفس الصمت الذى انقطع به .

وجأر « بكر افندى » حين رآه ماثلا على العتبة . وعبر أبى فضاء المدخل قاصدا إلى الركن فأحس فجأة بيد تعصر قلبه ، وعللها ليلتذ بأن كل شىء فى المكان فقد حماسته وأضاع بهجته وأن « بكر افندى » لم يكن أهلا « لشغل هذا المنصب » فشرب ورجع . ثم رجع وشرب . ثم رجع ولم يعد بعدها أبدا !

كان السبب اجباريا لا أثر للاختيار فيه لأن أمراض الشيخوخة قررت حرمان أبى من الشرب . وقد كان جديرا بألا يطيعها وهو أهل لذلك . لكن الذى كان يحدث هو أنه يشعر بالرغبة فإذا ما استجاب دفع الثمن غاليا من الألم . وفى بعض الأحيان كانت الرغبة والخوف من العواقب يظهران معا فى وقت واحد فتدمع عيناه فى صمت وهو ضاغط جبهته بأصابع كفه حاجبا بريق عينيه عمن يراه .

وكنت إذ ذاك فى الثامنة عشرة أنظر إلى الحوادث فى بيتنا فى رفق محايد وديع هادئ . وأرى أمى تختلى بنفسها فتبكى فى صمت ، وعندما تدخل على أبى يعود وجهها فيلبس قناعا من السكون كأن شيئا مما كان لم يحدث .

أما (بدرية) فقد كانت فى الخامسة عشرة ملأت صدرها أنوثة فياضة وانبعث من عينيها بريق جديد . و (سميرة) فى العاشرة تخطو فى طريق الأنوثة بليونة ورقة وحذر . ينقطع نفسها فى منتصف الطريق إذا أجبرتها أختها على الصراخ أو كلفتها فوق ما تحتمل . وكان أبى ينظر إليها على وجه الخصوص ويطيل النظر إذا مرت أمامه فى الليالى التى يثقل عليه فيها المرض .

ثم نظرات رثاء معينة كانت تلتقى على وجهى إذا دخلت على أبوى وهما ساهمان . وسألت نفسى ذات مرة : لماذا لا يقولان لى ما يضمران فأعرف أين أنا ؟ أليس ذلك خيرا مما نعانيه جميعا ؟ ألا ليتهما يقولان !! لكننى كنت لا أسمع شيئا فى البيت .

كنت حتى ذلك الوقت أشبه بضيف طويل الإقامة يلقى من الإكرام ما يلقاه البنون . لا أعرف طعما واضحا لشىء ولا أتصور الحياة إلا هادئة . وكنت فى أحيان قليلة أتساءل :

ـــ هل سيجئ يوم أكسب فيه مالا وأتزوج امرأة وأرى من حولى ناسا ينتظرون إشارتى وأمرى ؟! متى يأتى ذلك اليوم ؟!

وكان ذلك من تعطشى إلى المسئولية وظمئى إلى الضرورى من الصراع ، والنهاية الصغرى منه التى تلزم كل حى . والتى تشبه المرارة الضئيلة فى الخمر التى فتنت أبى .

على أن ذلك كله لم يقدم ولم يؤخر ولم يغير من الواقع شيئا . بل أخذ الواقع يسوء وعلامات خوف وقلق تبدو على المرأة المسكينة (وأمست أسيرة الأحلام هذه تنهض من تحت كابوس لتقع تحت كابوس آخر) .

رأت فى منامها أن الشجرة الكبيرة القائمة فى زاوية الحديقة كسحتها فى إحدى الليالى ريح آتية من الجبل . ورأت مرة أخرى أن الكلب الرابض تحت شجرة الخروع ينظر إلى إنسان لم تتبين شكله وهو خارج من الباب الحديدى وكأن دموعا تسيل من زاويتى عينى الكلب وعواء مكتوما يتردد فى فمه . وكانت تقص هذه الرؤى على بصوت خافت وعيناها منصرفتان عنى إلى شىء آخر ، حتى كأنما كانت تحدث نفسها . ويفعل ذلك فى خيالى ما تفعله اليد فى الحوض الساكن حيث تعبث بمائه . والأدوية تتزاحم إلى جانبه يوما بعد يوم . والزوار يقللون زياراتهم حتى انقطعوا كأنما رأوا أنه لم يعد هناك داع لضياع الوقت .

حتى الشحاذ المقيم على ناصية الشارع كف عن ابتزاز نقودى بالدعاء كلما رآنى لأن أمى نهرته عن ذلك مرة . وقد كان أبى يعطف عليه باستمرار .

ثم استكان استكانة الأذلاء وبكى يوما وأعلن أنه يسبب لنا المتاعب

فتركته أمى وذهبت إلى حجرة أخرى وأذابت عينيها من الدموع ثم عادت إلينا بخدود عليها بقية حمرة .

وفى إحدى ليالى الشتاء والريح تهدر فى الجبل وتلوى أغصان الأشجار بين كفيها كأنها غدائر شعر . أسلم روحه فى صمت كأنه نوم . وأقسمت أمى أنها رأت روعة ملائكية بيضاء ترفرف على فراشه وأعلنت أنها تعرف ماضيه لكنها تعرف أيضا ماذا رأت !! وقبل أن ينبثق صوتها بالصراخ ليلة مات كان الكلب يعوى تحت شجرة الخروع ، والقطار الأخير القادم من العاصمة يمط صفيره على أبواب المحطة ، ويزفر ... قبل أن يتوقف ...



٥

وترك لنا معاشا صغيرا ، وأحزانا كبيرة ، وأما فى صرامة السيف ، لم تكن لى موضع نجوى فيما مضى من الأيام حتى ولو كان لى نجوى . سجانة حسناء فى سجن الحريم ... منظر حلو ومهمة قاسية . وقد أعادت ترتيب « نظامنا » كما يفعل القائد ، وأفهمتنا بطريقتها التى لا تخلو من الإيحاء أنها تحس أخطارا تتهددنا خصوصا من ناحية الاقتصاديات لأن أبى — رحمه الله — استهلك كثيرا فى أيامه الأخيرة .

وكنت أخاف من تنبؤاتها كأنها كانت ترى ملامح الغيب . وبعد وفاة أبى تنبأت لنفسها أنها ستكون طويلة العمر . وأطرقت إلى الأرض وهمست بعد قليل : وهذا بعد الأزواج فرصة للمتاعب (وتنهدت) .

ولا أكتمك أننى تأثرت بما قالت . ربما فعلت ذلك لكى تثير حماستى أو تزرع الحنان فى قلبى بشكل أكثر قوة . على أننى شاب هادئ . إحساساتى شبه داخلية . قد أحترق فى الباطن ولا يرى على وجهى أثر

الحريق . والدمعة عزيزة كأنها نابعة من الجلمود . وحتى هذه السن لم أمارس الحياة ممارسة واقعية بل كنت كأنني أقرأ عنها في كتاب . ولم تعد فرصة اتصالى بالناس سانحة كما كانت من قبل أيام أبى الزاهية وانتعاشه المالى . ولم يكن لى فى المدرسة أصدقاء من أندادى .

كان هناك قلة من أبناء الفلاحين النازحين إلى المدينة لأجل التعليم . يقيمون وحدهم وأهلهم فى القرى ولا ينعشونهم إلا بالفطير والخبز من حين إلى حين . ومن بين هؤلاء الطيبين كان معظم من يعاشرنى . وكنت أرثى لوجوههم الشاحبة وأيامهم الجرداء ووحدتهم أيام المواسم ، فأقرضهم من مصروفى ما قد يطلبون . وقلما كنت أستعيد القرض .

ولما ناقشتنى أمى الحساب مرة بعد مرة وضيقت على الخناق وبدا فى عينيها الشك أننى قمت برحلة إلى حى العاهرات ـــ لم أجد بدا من أن أعترف . وعند ذلك شهقت . وأفهمتنى أنه لا فرق مطلقا أن يخدعك رجل وأن تخدعك امرأة ... كله ضحك على الذقون .

كان ذلك فى حياة أبى . وكأنما عز على أن يلحقنى هذا فشكوت إليه أمرها فوجم ثم أفاق ثم ضحك ثم قال ـــ وكان راقدا على الكنبة ظهره إليها ووجهه إلى السقف :

ـــ إنهم مساكين . هؤلاء الذين يعيشون وحدهم فى المدينة . لكن ... ليس من الممكن يا بنى أن تمحو وحدك آلام كل الناس . استرح إذن . وسكت ثم استأنف :

ـــ على أن المال الذى تتبرع به ليس من كسبك (وضحك مهونا) وعندما تكسب شيئا كن حر التصرف فيه . إن أمك محقة إلى حد ما ...

ومنذ ذلك الوقت وأنا أحيد عن الأصدقاء . أفهمونى أنها مسألة مصالح . ولست أنسى يوم انزوى بى أحدهم فى الفسحة الأولى أصفر الوجه متشقق الشفة منتن الفم وطلب منى أن أقرضه شلنا . فجف ريقى ولم أستطع أن أرد عليه وكدت أقول له : إنهم حرموا على ذلك لكن لسانى سبقنى فقال غير ما كنت أشاء . قلت : غدا صباحا ...

وكان (غدا) الجمعة . وفى يوم السبت لم أقدم إليه شيئا . وسألنى بعينيه فى استدارتهما اتساع وفى بياضهما اصفرار فأشحت عنه بوجهى فلم يعاودها بعدها ...

أرتنى أمى أن الصداقة نهب وأن الغرام خداع وأن العلاقات بين الناس تنسجها منافع ظاهرة وخافية . ورأيت أبى قليل الأصدقاء تقوم اقتصادياته على (الاكتفاء الذاتى) لا يعطى ولا يأخذ . يسكن بيتا يملكه وينفق مرتبا يقبضه فى نظام مثل حركة البندول متسق لا يتخلف . حتى إذا ما ألح عليه الداء حذف أشياء بدل أشياء وباعت أمى معظم حليها واستجاب الله لدعاء المريض فاختاره قبل أن يجور على قوت الأولاد ، فترك من بعده أسرة كلها أرامل ليس فيها رجل يعتمد عليه !

وأظهر شخصية فينا كانت شخصية أمى . وكانت إمكانيات النجاة فى السفينة التى تقودها إمكانيات ضعيفة . فهناك : أنا .. وأنا طالب فى أخريات دراستى الثانوية لا تثير شخصيتى ولا تربيتى ثقة ولا حماسة . وبعدى فى الترتيب تأتى (بدرية) ... عفريتة تحتاج إلى قيد . شخصيتها كماء النار شديدة الكى . وتشغل بال أمى أكثر من أى فينا ، فكانت ترى أن أملها وقمة سعادتها أن تدخلها إلى بيت زوج . ثم تأتى (سميرة) آخر الأمر ... مثل بيت الشعر فى دفتر الحساب . فى موطن شبه غريب فى

طبيعتها . كنت وأنا شاب غير مرهف أتألم لها حين أرى (بدرية) تطلق عليها من رعونتها دشا بعد دش لسبب لعله تافه . فتحتمل هي طيشها في ألم صامت كأنها زهرة تدعك بين إصبعين .

مرة كانت تمسح البلاط وتستصحب ماء المسح في جردل وتعصر الخيشة بكفين غير قادرتين ، وحبات العرق على وجهها المحتقن كأنها الندى على الورد ، ونبضات قلبها تظهر في نقرة نحرها ونفسها مقطوع — فحدث أن عثرت في الجردل وكان خلف ظهرها وهي مكبة على يديها ورجليها ، فأريق ما فيه من ماء وسخ . وعند ذاك خرجت لها (بدرية) من حجرة ما كما تخرج الحدأة من الوكر وضربتها على صدرها بكفها الجافة فتراجعت البنية بثيابها المشمورة الكاشفة عن ساقيها حتى استندت إلى الحائط وصارت تتأوه بحركة مكتومة وبصوت لا يجد مخرجا ، وغاب الدم عن وجهها حتي ابيضت أرنبة أنفها . ولما نزلت أمي من فوق ورأت ثورة ابنها الهادئ وشحوب ابنتها الصغيرة انضمت إلى معسكرنا وأمسكت (بدرية) من شعرها النامي وأجبرتها على أن تستعمل الجردل . مرة واحدة وانقضى الأمر ثم عادت الأمور إلى ما كانت عليه .

على أن المهم في الموضوع هو ما آلت إليه اقتصاديات بيتنا بعد موت أبي . كان لا بد لنا من مورد جديد يؤازر بضعة جنيهات تدخل إلينا من المعاش ... عرق أبي الموظف وهو في القبر . وكان موقفنا من ذلك يدعو إلى التفكير . كنت في السنة الرابعة الثانوية بيني وبين الشط عام وبقية العام التي تركنا أبي خلاله . وكنت بطيء الخطا غير مأمون الرحلة فكان من الجائز أن أتعثر في الطريق فلا أتم مرحلة تعليمي في هذه المدة . وأرسل

لنا رئيس أبى رسالة مع أحد الخدم أبدى استعداده فيها أن يعيننى فى إحدى الوظائف لأنه يعلم حقيقة حالنا .

وقد كان أبى من المحبوبين لديه ولم يكن يخفى عنه شيئا .

وسهرت أنا وأمى ندرس الموضوع . ماذا أقول ؟! هل كنا ندرسه معا ؟! لا ، مطلقا . قالت أمى وهى جالسة على المصلى ونظراتها فى حجرها :

ــ لنفرض أنك توظفت . هذا حسن . فهل بضعة الجنيهات التى ستدخل إلينا تساوى قطع تعليمك . أظن لا .

فسارعت بالموافقة .

فألقت على نظرة شاملة كأنها احتوتنى بها . ودخلت علينا (بدرية) تقترح أن تقلى العجة بالسمن فردتها أمى إلى الصواب بتخويفها من المستقبل وأمرتها أن تقليها بالزيت ، فلوت بوزها وخرجت من الحجرة . وما هى إلا هنيهة حتى رجعنا إلى مناقشة الموضوع ، قالت أمى :

ــ ولنفرض أن الظروف لم تكن فى صفنا وأننى مرضت مثلا أو أن إحدى أخواتك طالبتنا بجهاز عاجل ، فهل يكفينا المبلغ الذى قرر لنا معاشا ؟

فلم أرد .

فأجابت بالنيابة عنى :

ــ من الخير إذن أن تذهب فتقابل الأستاذ الجمال . توظف .

فسارعت بالموافقة .

وعندئذ وصلت إلى أنوفنا رائحة من المطبخ . هى رائحة عجة تقلى بالسمن . فنظرت إلىّ أمى نظرة شاملة كأنها احتوتنى بها . وبدا فى عينيها

اعتراف غامض بأن صاحب الرأى أكثر اعتبارا من الناس حتى ولو كان خصما . ثم انصرفنا عن الموضوع .

ودخل مساء ذلك اليوم .

كان الليل فى الضاحية ساكتا لا تصدر عنه حركة . إلا انزلاق الحديد على الحديد فى حركة القطارات الذاهبة والآتية وهفة أوراق الشجر تحت الشيش تدخل من أذنى إلى قلبى كئيبة كأنها وسواس . و (سميرة) تذاكر إلى جوارى ملتهبة الخدين من فعل البرد وأوردتها تتعرج تحت بشرة صدرها فى لون الفيروز وتسألنى من حين إلى حين سؤالا مدرسيا يعترضها . و (بدرية) هناك مع أمها لا ندرى ماذا تصنعان .

كنت حاسا بالمسئولية إحساسا كخوف السكران أن يضل الطريق . وكنت أتمنى أن أكون موظفا . أريد أن أعاين هذه الحالة . « أن أكسب وأتزوج فأملك امرأة ويكون من حولى من آمرهم فيسمعون أمرى » !!

لم أتمتع بذلك قط . كالمريض الطفل الفقير الذى بات يهذى بالتفاح .

وعندئذ صر الباب وانفرج عنه وجه أمى أبيض زاهيا فى الملابس السود ونور مصباح الصالة واقع على ظهرها .

وفجأة تمتمت شفتا (سميرة) التى كانت غير حاضرة الذهن ونظرت أنا إلى أمى أسأل عما تريد .

دخلت وفى رجلها شبشب من الصوف لا يسمع له وقع ثم اتكأت على حافة المكتب وسألتنى :

ـــ هل تذهب غدا لمقابلة « الأستاذ الجمال » الذى أرسل فى طلبك من أجل الوظيفة ؟

فكان جوابى سؤالا آخر :

ـــ أذهب ؟

فوافقت من خلال تنهدها ثم صارحتني بمخاوفها أن أعين خارج القاهرة . إذن ليصبحن حساب الربح أدنى من الخسارة . فالبيت يريد رجلا وعدة جنيهات :

ـــ هذا ما ينبغي أن تقوله في وضوح . ابذل كثيرا من الاحترام واجعل في ملامحك شيئا من التعبير (وعضت على نواجذها من الضيقة) .

ـــ حاضر !

فقالت بانفعال جديد :

ـــ أنا لو كنت تعودت أن أقابل الموظفين ... لذهبت إليه !!

ـــ ليس هناك ما يدعو إلى ذلك .

فتشاغلت عني بإلقاء نظرة على كتاب (سميرة) وانسحبت تجر رجليها بلا صوت في التبشبش الصوفي . وحين ألقيت نظرة على ظهرها تبينت أنها هزلت ، فالثوب أكثر سعة وقد كان محشورا في جسمها حشرا .

وفي صبيحة اليوم التالي لم أذهب إلى المدرسة . صعدت إلى الدور الأول من مبنى وزارة الصحة لأقابل « الأستاذ الجمال » وحين رآني الساعي الجالس على بابه عرفني بملامح أبي فمصمص بشفتيه . كان الساعي رجلا مسنا ذا لحية سوداء مستديرة كأنه يصبغها . سليم العينين ربعة . وبدأ يحوقل ولعله تذكر أبناءه . وجلست على أحد الكراسي في الطرقة تحت الجرس ذي (التابلوه) فشعرت أنني في مأتم أبي . كل من يمر يحملق . وبنظرة واحدة إلى الساعي يعرفون من أنا . وخيل إلي أن موت

الأب جريمة ليس للأبناء دخل فيها . فغمرنى شعور من الخجل واحتقن وجهى الزاهى أو الصورة الثانية من وجه أبى الراحل . وعاد إلى الساعى يؤكد أننى سأقابل « الأستاذ الجمال » فور خروج الزائر ، فتنهدت وجلست أستمع إلى صرير الجرس وأتلهى بعامل (البوفيه) العصبى الذى يمر كالنحلة كل خمس دقائق وعلى كفه صينية المشروبات . وسألت نفسى لكى أتشجع :

ـــ هل لهذا الولد أب ؟

ثم أجبت :

ـــ ربما ... لا .

وأردفت بحماسة :

ـــ وربما .. ولا أم .. يتيم .. لطيم .

وغمرتنى حماسة الجبان حين يسمع (المارش) العسكرى . ونادانى الساعى فدخلت أهرول . وكان « الأستاذ الجمال » متكورا على كرسى المكتب ، طوله كعرضه وبسمة مؤنسة تضىء من حوله المكان . واختصر الرجل الكلام كأنه يملى برقية :

ـــ أنتم موافقون إذن ... حسن ... أوه . إنك لم تعد صغيرا ... وضغط جرسا فدخل أحد الموظفين .

ـــ معه يا « رجب افندى » إلى المستخدمين ... إنه من طرف .

فسرت خلف « رجب افندى » من سلم إلى سلم ومن دهليز إلى دهليز إلى حيث كتبت طلبا وتركته . وفى قطار الساعة الحادية عشرة رجعت إلى (حلوان) حيث قصصت على أمى موجز الخبز وكانت تصغى إلى بوجه لا يبتسم .

٦



وأصبحت كاتبا فى إدارة الحسابات بوزارة الصحة . أتقاضى ستة جنيهات فى الشهر وأجمع وأطرح وأضرب وأقسم .

وسألت نفسى ذات مرة : لماذا كتب على أن أعيش بين الأرقام ؟ هل أرادت الأقدار أن تضيف إلى حياتى لونا من (الثبوت الذى لا يتغير) كان ينقصها ؟! وقهقهت ساخرا وأنا أصعد سلم المحطة لأدرك القطار قبل أن يتركها .

ولم يكن يعنينا المورد بقدر ما كان يعنينا ما نأخذه منه . فبدرية قعيدة البيت تساعد أمها فى قضاء حاجتنا . وسميرة تتعلم وتتفتح وتبشر بمستقبل فى كل مرافقها الحيوية .

وبعد خمسة وأربعين يوما أمسكت بالنقود للمرة الأولى من عرق

جبينى . من خزينة الحكومة . من نفس المكان الذى يصرف منه الوزير . ثمانية جنيهات إلا قليلا وزعتها على جيوبى حتى لا تنشل . بعد أن أعطيت منها « عم سيد » شلنا . وركبت القطار قبل الميعاد ووصلت إلى (حلوان) .

خيل إلى وأنا أصعد سلم السلاملك أننى أطول من أمس وأكثر ضخامة وفخامة . وكان اليوم خميسا و (سميرة) عادت من المدرسة . تدق ساعة دخولى مسمارا فى الصالة لتعلق صورة جديدة لها . ونزلت من على الكرسى والتصقت بى تطلعنى على الصورة ، وقبلتها فى جبينها وناديت أمى فجاءت من الحمام وكفها حمراء من دعك الغسيل وعرق طفيف على شفتها العليا .

ودخلت إلى حجرتى وتبعتنى . كل شىء فى كان قويا . وكنت أمشى بخيلاء . وجلسنا على أريكة جنب فراشى وصرت أخرج من كل جيب نقودا وأضع كل ذلك بين يدى أمى .

وأعادت تجفيف كفيها فى ذيل ثوبها ثم أمسكت النقود . ولاحظت أن أناملها ترتجف وأن شيئا من الحزن يطفو على وجهها وزايلتنى الفرحة وحل مكانها وجوم غريب . وإذا انقلب مرحنا انقباضا كان يدعو إلى التقزز كالعسل إذا خلطته بالملح .

— ماذا بك يا ماما ؟ ... هل يحزنك أن أقدم إليك مرتبى ؟

فأجابت بأسف لم تستطع ستره :

— أبدا يا بنى ... لكننى تذكرت ماذا كان يفعل أبوك ... آه ...

ولثمت النقود وأطبقت عليها كفها . ثم نظرت من خلال النافذة وأنصتت إلى الكلب الذى ينبح . وإلى (سميرة) التى عادت تدق المسامير ثم قالت أمى بصوت حزين :

ـــ لقد أصبحت أبا فى وقت مبكر ... لك ثلاث من البنات ... اثنتان منهما قابلتان للزواج . أ .. آ ..

فتدخلت فى الموضوع :

ـــ إننى سعيد بكل هذا يا ماما .

ـــ أنا واثقة . لكننى بمناسبة بدء أكلنا من عرق جبينك أحب أن أذكرك بشىء . نحن معك كمن ينظر إلى الدنيا بعين واحدة فإذا رمدت أو فقدت عاش فى الظلام . تمام ؟!

قلت بشىء من الجزع :

ـــ وما الداعى لهذا كله ؟ ألست ابنك ؟!

ـــ ليس فى الدنيا أم مزورة . قوة الأمومة فى أنها من المحال أن يتسرب إليها الشك . أنا أمك ضرورى . لكن ... بعد وفاة أبيك أحسست أننى لا أستطيع أن أعيش بدونك ...

ـــ وأنا أيضا .

فأجابت بلهجة أمر :

ـــ اسمع منى وكن طويل البال . خير لك أن تفهم الموقف بوضوح فأنت دليل القافلة . هذا البيت ابن تجربة واحدة لا يحتمل بعدها شيئا فنحن إن فقدناك بطريقة من الطرق ضاع منا كل شىء .

ونظرت ساهما ووجهى شاحب . كنت آنذاك غير أهل للتعبير إذا خضت هذه المواقف خصوصا مع أمى . لكن باطنى كان يغلى . وكان فيه شىء أقوى من الذى قالته . لكن الفرق بينى وبين أمى أنها (تستطيع أن تقول) . والمعانى تطل من العينين . وقد أدركت فعلا ما يدور فى داخلى

فقبلتنى فى كتفى وانصرفت فى ثوبها الأسود تطأ الأرض برفق من يخشى أن يوقظ نائما...

وكان كل هذا مدعاة إلى التفكير .

وبدا الوضع متناقضا بين حياتى فى البيت وحياتى فى العمل . أمى وأخواتى ينظرن بخوف على . ولكن الزملاء الذين أعاشرهم كانوا يرهقوننى ويقسون فى تلقينى أصول الحسابات . وكان بعضهم يسخر من أخطائى .

حسن . ليس إذن ما تخاف عليه أنت يخاف عليه غيرك من الناس .

وعندما كانوا يضيقون على الخناق ولا أجد بينهم نصيرا كنت أتخيل أن أمى بشخصيتها القوية داخلة علينا من الباب . وأن هؤلاء الشبان الطوال اللسان استطاعت أمى بقوة جدلها ومهابة نظرتها أن تلجم أفواههم .

هناك إذن حياة خارجية ينبغى أن نمارسها ونحن صغار ... وتلك هى التى منعت منها . لا يتعلم السباحة من يخافون عليه من الغرق ، ويغرق أخيرا من يتعلم السباحة . آه ...

ودعك الآن من حياة الديوان فالمهم هو حياتنا فى البيت .

مرتبى ومعاش أمـــى وأخـــواتى وإدارة حكيمـــة فرضت على الجميع ـــ أتاح لنا هذا حياة رخية معكوفة . أما نصيبى من مرتبى بعد اشتراك القطار فكان طفيفا لا يتجاوز ثمن فنجان من القهوة أو كوب من الشاى أو زجاجة غازوزة كل يوم آخذه دفعة واحدة أول الشهر . وعلى أن أوازن نفقاتى بدقة وأن أحفر حفرة لأردم بترابها حفرة . فإذا أردت دخول السينما انصرفت عن المشروبات بضعة أيام ثم أخذت من أمى نصف قيمة التذكرة ..

هل عاملت أبى هكذا ؟ لقد كان يشرب أشياء غير الشاى ويذهب إلى أماكن غير السينما وكانت تطلب رضاه . أما أنا فإننى أعطى وأطلب الرضا !؟

وحاولت أن أعثر على الفرق بين الرجلين ... بينى وبين أبى .. فلم أستطع . وقلت أن خير مرشد لى أن أحاكيه بطريقة ما فجئت أول الشهر التالى وقدمت إليها المرتب ناقصا خمسين قرشا . فأعادت عد النقود ثم أعادت عد النقود . ثم سألتنى بابتسامة فيها مرارة :

ـــ مبروك هل حصلت على ترقية ؟!

كنت أريد أن أمزح أو أن أجرب لكننى كنت أضعف من أن أحمل لطمة . فهتفت محتجا :

ـــ ماذا يا ماما ؟

فأجابت بتراجع أقوى من الهجوم :

ـــ لا شيء ... لا شيء ... إنه مالك وأنت حر فيه . لكننى أحببت أن أضبط الحسبة .

ـــ إن أحد السعاة مات فجأة وترك أولادا صغارا فجمعوا له إعانة جبرية دفعت فيها هذا المبلغ ... معقول ؟!

وأحسست أن فكى الأسفل قد تراخت أعصابه وأنه على وشك أن يهتز . وثار فى باطنى صخب . لماذا اخترت هذا النوع من الأكاذيب ؟ ألا إنه هو السيف الذى جرحنا به الله ؟! على أن وجه أمى قد بدا أمامى مريعا للغاية حتى كاد يحملنى على الاعتراف . خيل إلى أنه قد انتفخ وتضخم كأنه تورم واتسعت عيناها القويتان كعينين طبعتا على الشاشة وفاض منهما شك وتعبير وتأنيب وحزن وذكرى . وكأننى رأيت كل

شيء فيهما إلا ثقتهما بي وتصديقهما لما أقول . وكانت النقود لا تزال بيني وبينها على مساند الكنبة ونحن جالسان وجها لوجه فجمعتها هي بيد مهزوزة ثم أخذتها وانصرفت تطأ الأرض برفق وتنساب كالطيف وقد بدا الثوب الأسود عند خصرها أكثر اتساعا . وتركتني وحدى .

* * *

وظللت مكانى لابسا بدلتى أحاول معرفة ما كان أبى يقهر به هذه السيدة . طبعا نحن رجلان مختلفان .

ولم أستطع أن أغادر الكنبة . وكان المبلغ فى جيب بنطلونى الخلفى فى ظرف حكومى مستعمل . حذفته مزاحا أول الأمر فانقلب المزاح إلى جد دون أن أشعر فصممت على كذبتى .

وسمعت جلبتها فى المطبخ ومعها ضجيج (بدرية) . كانتا مختلفتين على شيء وكل منهما متمسكة بوجهة نظرها . وخرجت (سميرة) وعادت عشر مرات إلى الدكاكين تشترى وتدفع . وأخيرا خلعت سترتى ووضعتها على كرسى وتمددت فى السرير ببقية الملابس حتى الحذاء فرحت فى . النوم .. ثم استيقظت على كفها المثلوجة تهز رأسى وهى تقول لى بحنان فطرى :

ـــ هكذا بملابسك .؟! .. هل أنت تعبان ... قم ... الغداء على المائدة .

ولم آكل بشهية . كان هناك باذنجان مقلى طازج وملوخية طبخت أمس ولم يكن معها لحم كثير . وخصتنى أمى بمطايب الأكلة لكننى رفضت . ويظهر أن الرفض لم يصادف وقته المناسب فأثار فى نفسها غيظا .

وأكلت (بدرية) ما كان موضع النزاع بيننا فى حين أن (سميرة) الصغيرة رفضت ذلك . وقمنا عن الطعام وكنت لا أزال بملابسى. فخرجت صوب الخلاء .

وبدا طريق المرصد المنحدر مبلولا تحت الشمس . كان صنبور أرضى كبير قد بات يرشح طول الليل فبلل الأسفلت وندى الحشائش النادرة النابتة فى بعض الأماكن على جنبى الطريق .

ولم أصعد الطريق كما كان يحلو لى لأن الشتاء قد ولى .

فألقيت نظرة على المستشفى الجاثم فى تعقل وسكون بالقرب من صهريج الماء ولو أن الذين ينزلون فيه ليسوا عقلاء . ثم سرت .

ووجدتنى فجأة فى الحديقة اليابانية تحت ظلة مجدولة بالخوص ولم يكن هناك رواد كثيرون . والأزهار قريبة عهد بالربيع متفتحة يانعة . ونسمات تئز فى ذوائب (الجزورينا) . وقطة وقطة ... وفراشة وفراشة . وأنا وحدى ...

ورجعت أفكارى إلى أمى . إننى أعرف خطتها الآن . واضحة لا غموض فيها . قدمتها لى على جرعات : « تتزوج (بدرية) ثم تتزوج (سميرة) . ثم تحج هى . ثم أتزوج أنا » ... هى . ما أطول البرنامج !!

إن الزملاء حولى لا يفترون يتحدثون عن النساء ... ما بين حلال وحرام . خصوصا (فهمى) ذو الشعر الأسود والخد المنهوك والبشرة البيضاء . دخل عليه الرئيس يوما نائما على الدوسيه فقال له : صح النوم يا أفندى . لقد امتصت النساء نخاعك ...

فانتصب صامتا وضحكنا فأردف قائلا له : الحكومة تعطيك وهن يأخذن . فلماذا لا تقسم بشىء من العدل ؟!

لكن ...

لن أترك هذا البيت ؟! أمى تحبنى جدا ويبدو الحنان حتى فى لمسة كفيها . لكنها تقيم حولى سورا كأننى حديقة فواكه .

لا أستطيع أن أتأخر فى الليل إلا إذا كانت هناك أعمال إضافية . وعندما أعود ، ويكون البنات قد نمن . تجلس لتعشينى وتسامرنى . إنها امرأة عجيبة مليئة بالتناقض . يحملنى حنانها على أن أريق فى سبيلها دمى وتحملنى قسوتها على التفكير فى الانتحار ... وكله موت !!

وحكاياتها دائما لا تخلو من المغزى . ونظراتها دائما لا تخلو من الفحص . إلاَ أننى فى ذلك اليوم الذى خبأت فيه النقود كنت ثائرا عليها حتى سخرت من برنامج حياتنا الذى رسمته أمى فى هدوء .

وعندما عدت إلى البيت فى المساء وجدتها ذبحت دجاجة وطبخت معها كشكا . هى تعرف أننى أحب هذه الأكلة وأننى أطلبها منها فى كل مناسبة طيبة ... كما نعمل الكعك فى العيد . وأدركت أنها تسترضينى . وحين جلسنا إلى العشاء ابتسمت وهى تقدم لى صدر الدجاجة وكان فى عينيها عتاب عزيز . إنها تستطيع أن تفرق بين ما تسمع من صدق وكذب دون أن تطلب على أحدهما دليلا . وكان ذلك جل ما يخيفنى منها . وصرت آكل ووجهى إلى الطبق و (سميرة) إلى جوارى تمصمص العظم فى رقة ونظافة كأنها قطة بيضاء . و (بدرية) تتمطق وتثرثر وتشرب وتتلفت وتحدث صوتا بملعقتها كلما لمست الطبق . أما أمى فكانت تنظر إلينا جميعا وتزدرد الطعام بلا شهية . وأخيرا التقت نظراتنا فابتسمت لى بحنان :

ـــ فؤاد ... هل أنت غضبان ؟!

وقدمت بقية ما فى يدها إلى . قلت وعلى وجهى علامات الجد :

ـــ أبدا يا ماما . لا . بالهناء والشفاء لك أنت . كدت أشبع .

ورجعت آكل . فاستطردت فى صوت كسير :

ـــ هل أنت غضبان ؟

ـــ لا . مطلقا . لكننى تألمت من عدم تصديقك لى .

فضحكت بشهية أكثر من التى كانت تأكل بها . وكان كوعاها على المائدة وكفاها قريبتان من وجهها . ثم قالت :

ـــ آه أيها الصغير . عندما تصبح أبا ويصبح هؤلاء البنات أمهات ... تعرفون جميعا كيف كنا نحبكم ...

وقامت فغسلت يديها وجلست تركب ملاءة على لحاف ... وسألت نفسى وأنا لا أزال فى مكانى عما إذا كانت أعطتنى جوابا حاسما عن تشككها فى . فلم أجد ولم أعاود التكلم فى هذا الموضوع .

وبقى المبلغ فى جيبى حيث كان ثمانية أيام كاملة . وفى اليوم التاسع جلس الشبان من حولى فى الديوان آخر اليوم العملى يتكلمون عن سهراتهم وجلس (فهمى) يصف ...

كان داعرا معصورا قلق العينين تبدو على وجهه آثار المفاسد ، ضرب مرة فى بيت سرى وضاعت حافظة نقوده وكانت فارغة .... وخدع عدة فتيات من بنات المدارس ، يزعم أن إحداهن انتحرت من حبها فيه وحسرتها على ما منحته . وله أم تدارى عورته وتغطى خسارته من نفقات البيت . وتعلقت به إحدى المومسات الرسميات حتى فكر فى أن يسحبها من الأوحال ويعيدها إلى حياة الأسرة فيتزوجها !!

وجمعتنى وإياه الطريق ونحن خارجان من العمل . فسألته وبقايا الدهشة لا تزال عالقة بنفسى :

ــ صحيح يا فهمى أن فى مقدورك أن تتزوج مومسا ؟

فتنزى عوده الضئيل وحملق فى بعينين قويتين :

ــ لماذا لا ؟! ... إن الله يقبل التوبة فلماذا نرفضها نحن ؟

ــ وأبوك ؟ وأمك ؟ ألا تخاف غضبهما ؟!

فجلجلت ضحكته حتى التفت إلينا شيخ كان يمشى على مقربة وحرك رأسه فى أسف . ثم قال فهمى :

ــ هل عرفت إحداهن ؟

ــ إحدى من ؟

ــ إحدى المومسات ؟

ــ أعوذ بالله .

ــ من جهلك .

ــ وهل الجهل بالرذيلة جهل ؟!

ــ ليس هذا من عملى . كل ما أعلمه هو أن أحسن علاقة تربطك بالأشياء هى معرفتك بها . حاول أن تعرف . إن وجهك قد احمر . لا داعى لحياء العذارى . هل أساعدك على التجربة ؟ ..

ــ أيها الفاسد !

ــ احتضنت فتاة فسلمتنى نفسها وهى تقول لى : أيها المجرم وأيها الفاسد مثلك تماما . موافق ؟ وداعا سأمر على أختى الصغيرة لآخذها من الروضة . فكر فى الموضوع .

* * *

ولو لم يكن معى مثل هذا المبلغ لما اقترفت هذا الفعل . إن أمى محقة . وستنفذ عينها إلى قرارة نفسى عندما تلقانى فى الصالة . وألقيت نظرة على وجهى فى مرآة حلاق على واجهة الدكان فى الشارع فلم أر فيه ما يلفت النظر . لكننى كنت شاعرا باشمئزاز عميق كأننى على وشك أن أتقيأ ، فجلست على قهوة وطلبت كوبا من الليمون كثير العصير قليل السكر .

كان فهمى أوصلنى حتى بابها وأوصاها بى بغمزة عين ثم انصرف . ولأول مرة رأيت المرأة غير (أم) وكانت شيئا مريعا . حتى المكان لم يكن مخدعا بل خيل إلى أنه « مشرحة » ولفت نظرى إلى جنب الفراش إبريق ومغسلة هى طبق عميق . ونور أحمر يلقى ذوبه علينا . وكنا على كنبة ولم تند منى كلمة بعد حتى سألتنى بلهجة عارية غجرية مهزوزة : هئ ... ألا تقبلنى ؟ فذقت طعم العجين الأحمر على شفتها ولم أذق طعم القبلة . وحاولت أن أبصق لكننى خفت وفكرت أن أعطيها ثم أنصرف لكنها سألتنى وهى تحرك حاجبيها : أنت صديق فهمى ؟

فهززت رأسى مؤمنا . فقالت من خلال ضحكتها : هل هذا معقول ؟

قلت فى نفسى إنها تعذبنى ولا تثيرنى . ووجدتنى وجها لوجه أمام شفتها مرة أخرى فالتقمت العجين . وقامت فخلعت ثوبا ثم وقفت فى وسط الحجرة وقالت بلهجة اليائس : توتو ... آه ألا ترانى ؟!

فقلت ببساطة وغضب وسذاجة : ليس اسمى توتو ! فرفعت وجهها إلى السقف رويدا رويدا فى ضحكة ذات جذور حتى انمط عنقها وطال ثم أولتنى ظهرها وصعدت إلى السرير . ولما استقلت عليه قالت بتهكم : إذا لم تدركنى حالا فإن النوم سيغلبنى سيغلبنى . آه ... آه ... آ ..

وانخرطت تتأوه كأنها مجروحة فى الوقت الذى كنت أعمل فيه ما يعمله الطالب البليد أمام الممتحن حين يستعيده السؤال بحركة لا شعورية حتى تهبط المعجزة .

ولما صعدت إلى جنبها أخذها منى ضحك خرج من فمها وأنفها معا وانتفض به جسمها فانطفأت كما تنطفئ الشمعة فجمعت ثيابى وانصرفت ...

قالت وأنا خارج من الباب : سلم على ماما ...

وعلى القهوة شربت كوبا من الليمون وطلبت فنجالاً من الشاى .

أهؤلاء هم النساء ؟! أهذه هى المعرفة يا فهمى ؟!

ثم ركبت القطار وعدت إلى حلوان .

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة فتعشى البنات لسبب ما وأوين إلى فراشهن وتعشيت أنا وأمى وحدنا . وكنت طول الجلسة أحاول أن أظهر مرحا لكنها سألتنى فجأة عما إذا كنت أحس تعبا ؟

ـــ حقيقة أنا أحس بالغثيان .

ـــ هل رأيت شيئا مقرفا ؟!

فكدت أعض على شفتى لكننى أفقت وقلت :

ـــ تمام .. بصقة على أرض القطار كانت تلمع تحت النور . (ها . ها . هاء) ولم يستطع أحد أن يزيحها عن الطريق .

ـــ تشرب ليمونا أو قهوة ؟

ـــ شربت .

ـــ أين ؟

ـــ فى (بوفيه) المحطة .

ـــ انس الموضوع . لنتكلم فى شىء آخر . لقد استطعت أن أدخر عشرة جنيهات من دخلنا فى الأشهر الأخيرة . آه ... الأيام تمر . من يصدق أنه قد مضى عليك فى الوظيفة عامان . على فكرة لا بد أن نتصدق على روح والدك .

ـــ أظنها الآن مستريحة .

ـــ طبعا لكنها تهدأ تماما عندما أزوج البنات ، آ ... (بدرية) : إننى أفكر فيها دائما يا فؤاد ... بقلبى !

وعلا وجهها طابع شبه حزين ثم نظرت إلى الأرض .



٧

على أن (فهمى) قد علمنى أشياء كثيرة ...

كان يعلمنى ويسخر منى فى وقت واحد . فإذا غضبت بصرنى فى هدوء :

ــ لا تحزن أيها الساذج . خير تجربة هى ما نشتريها بثمن . استفد بشبابك . اعمل وأنت قادر . خض لجة الحب . اكشف عن وجه الرذيلة وكن فضوليا . اكسب واخسر وستكون أخيرا من الكاسبين .

ــ لست أنسى تجربة صديقتك ذات الغرفة الحمراء .

فقهقه ضاحكا :

ــ لقد قالت لى كل شىء لكن الله حليم ستار . ألم تذق الحب بشكل أحسن ؟

ـــ لا أريد .

ـــ كذاب . (وابتسم) .

ونظرت إلى وجهه فرأيت عليه شحوب من نجا من نزيف فلم أقل له شيئا . على أنني بيني وبين نفسي كنت أحسد هذه الروح التي لا يستطيع جسمه أن يسعها . كان يتوهج ككوكب الزهرة فى الليلة الظلماء ، حتى أيقنت بوحى قلبي أنه سيموت أخضر العود ...

ثم ظهر فى محيط أسرتنا صداقة جديدة ...

امرأة سمعت أمى تدعوها (فاطمة هانم) تعرفت عليها فى إدارة المعاشات بين صفوف الأرامل فى الثياب السود ، ثم حضرت إلى حلوان لتزورنا ذات مساء .

كانت فى عذوبة الماء وليونة العجين تتكلم كأنها مريضة وتسالم كأنها أسيرة . ولعل أمى وجدت فيها صديقة طيبة تحقق لها بعض مآرب نفسها .

صافحتها فى حجرة الصالون وكان عليها يومئذ معطف قديم حرير أسود احمر نسجه شيئا ما . وفى يدها حقيبة سوداء كبيرة تحمل فيها أوراقها وليس فيها شىء من أدوات الزينة .

وكانت الأيام تنسج بين المرأتين علاقات تدل على البقاء . فبعد صرف المعاش كل شهر كانتا تنزلان إلى (الغورية) لتشتريا ما يلزم لأولاد إحداهما . وقالت لى أمى ذات مساء :

ـــ إن فاطمة هانم اقترضت منها خمسة جنيهات لشأن طارئ (وقد أبلغتنى هذا للعلم) فسألتها ـــ بالمناسبة ـــ عن تفصيل حياتها .

كان زوجها موظفا فى (العوايد) ويبدو أنه لم يكن نظيف اليد . فقد كانت عيشتهم أرقى من دخلهم ومظهرهم أضخم من حقيقتهم . لكن الرجل على الرغم من كل شيء لم يستطع أن يدخر شيئا مما حطفه . ثم خطفه الموت فترك بنتا وولدين . (قلت فى نفسى) : أما أبى فقد ترك (ولدا وبنتين) والبنت هى الكبرى والولدان لا يزالان فى المدرسة ، وإن كان أحدهما على وشك إتمام تعليمه المتوسط .

كان معاشهم يكفى عيشهم الضنك . ودخلهم كالمصباح ينطفئ دائما فى أخريات الليل فلم تكن الأيام العشرة الأخيرة من الشهر تشهد عندهم رخاء . فضلا على أنهم سكان . ليس لديهم بيت يملكونه كما هى الحال عند الأرملة (أم فؤاد) .

وكانت (فاطمة هانم) تتكلم دائما عن عز قديم وتزعم أن جدها لأمها كان (سنجق) وأن أباها أحد المصريين الأغنياء ، لكن الزمن زحف عليهم من الجانبين .

وكانت أمى تسمع دائما إلى حكايات العز من فم (فاطمة هانم) بإصغاء المتصوف إلى الموعظة . ففعل هذا فى نفس صديقتها فعل السحر فأحبتها كثيرا .

وفى ليلة مولد النبى رأيت المرأتين تعملان (الكسكسى) عندنا فى حلوان لأن ابنة (السنجق) لم تكن تجيد صنعه . ثم مرضت أمى بعد ذلك بعدة أيام .

التهبت ركبتاها وامتلأتا ماء ومنعها الطبيب من مغادرة الفراش لأن الروماتزم حاد يتطلب راحة طويلة . ولما انقطعت أخبارها عن صديقتها جاءت تسأل عنها ورأيت يومئذ عجبا : كانت (فاطمة هانم) تبكى

بغزارة بعين غير سليمة الأهداب لا تخلو من الكحل ، وتقبل أمى فى كل مكان كأنها أختها وتتحسس قدميها من تحت الغطاء فى تدليك خفيف وحب ورفق . وتمنت لو تكون هى المريضة .

قالت أمى وعلى وجهها شعاع ابتسام :

ـــ إن أولادك أكثر احتياجا إليك من أولادى . (ودعتْ لها بالسلامة) :

ـــ لم أجد لى أختا إلا وأنا أرملة . ليتنى عرفتك قبل ذلك .

وفى اليوم التالى جاءت الأسرة كلها . وعرفت الكبير منها وهو طالب فى التجارة المتوسطة . جدير حقا بأن تطعمه امرأة . قالت (فاطمة هانم) فى معرض تعريفنا به :

ـــ هذا هو أكبر الصبيان . النار تخلف ترابا !! كان أبوه رجلا يلعب بالبيضة والحجر .

ثم نظرت إليه بعينها المكحولة وأهدابها المهوشة ، فقابل نظرتها بنظرة تأنيب . فكفت . ثم استطردت بعد تنهد :

ـــ لكن طول الأجل يبلغ الأمل .

أما الولد الأصغر فلا يحيا منه شيء . وأما البنت الكبرى فكان اسمها (زينب) . أخذت من (فاطمة هانم) طراوتها وطبعها المرن . طويلة الصمت تسرسب عينيها فى خبث علقت عليه أمى ذات مرة ـــ ولست أدرى أكان ذلك حقا أم قصدت به التنفير ـــ فقالت :

ـــ إنها من الهادئات وباطنها ثائر . ونظرتها من تحت تؤكد للفطن أنها لا تدع الفرصة الأولى تفلت منها !! .. كيف أنجبت تلك البلهاء كل ذلك الخبث ؟!

لكن الحبل بينى وبين (زينب) كان قصيرا للغاية . لم يكن هناك فرصة تُختلى فيها إن حدثتنى نفسى أن أنشئ علاقة غرام . كان طعم العجين الأحمر على الشفاه يظهر فى فمى كلما رأيت صبغا . وعملية تعذيب الفريسة أو مداعباتها تعاودنى إذا خلوت بامرأة . وعلى أن (زينب) كانت رزينة جدا . يبدو أنها كتوم إلى حد تستطيع به كتم حمل غير مشروع . وكل هذه الظلال أبعدتنى عنها ذهنيا لأننى فشلت ذات مساء فى دخول (باب مفتوح) !

أما (بدرية) فكانت كثيرة الضحك زئبقية النظرات طوال وجود هذه الأسرة فى بيتنا . وقد نهرتها أمى بنظراتها الخنجرية كأنما تريد أن تقول لها : ألا ترين ما تفعله الأخرى ؟!

وفى هذه الفترة بعد أن مضى على توظيفى أربع سنوات دخل على (عم سيد) الفراش ودخل خلفه الهواء البارد من فتحة الباب وقال فى أذنى : إن شخصا غريبا يطلبك فى الصالة ولا يريد أن يدخل . فلما خرجت لم أجد أحدا فتلفت دهشا فقال (عم سيد) : أنا الذى أريدك يا فؤاد افندى .

ـــ خير (يا عم سيد) .

فتنهد والحزن باد على وجهه :

ـــ (فهمى) افندى فى إجازة !!

ـــ أعلم ذلك .

ـــ إجازة مرضية .

ـــ أعلم أيضا .. وماذا فى ذلك ؟

ـــ أحب أن أقول لك لأنك غال على : لقد ظهر أنه مصدور .

ثم حملق فى بعينين لا تريان إلا على قرب ينسحب تحتهما أنف كأنما ضغطت أرنبته بمشبك . فانسحبت إلى الداخل صامتا حزينا .

وفى أول الشهر التالى نزلت أمى إلى إدارة المعاشات تمشى على ساقين لا تحملانها . وعادت متأخرة بعد الظهر . ورأيت (فاطمة هانم) آتية معها توصلها . تسندها وهى تصعد السلالم بحنان يستوقف النظر . يد تحت إبطها وذراع عند خصرها من خلف ، وأمى تتهادى كأنما سحرها الموقف وترجوها ألا تخاف عليها فهى بخير والحمد لله .

* * *

« لقد نجح الابن الأكبر لفاطمة هانم فى دبلوم التجارة ، وغدا يتوظف فى إحدى شركات بنك مصر أو على الأقل فى (العوايد) بمسعى رجل فى طيبة الأستاذ « الجمال » يعرف حال الأسرة » ...

هذا ما قالته أمى وهى تضع فى (السبت) الكبير عدة زجاجات من الشربات وعدة أقماع من السكر وعشرين حبة من بواكير المانجو .

وكانت (بدرية) تنظر إلى الفستان الذى لبسته فى المرآة . و (سميرة) تحتج لأنها ستبقى فى البيت . أما أنا فقد كان عندى عمل إضافى بعد الظهر لزحمة الإدراة بكثير من الاستمارات .

وركبنا القطار قبلى وهبطنا إلى العاصمة . وتركت (سميرة) فى البيت وانصرفت أنا الآخر .

كان الموظفون فى هذا المساء يتحدثون عن الحال التى آل إليها (فهمى) فلم يبق الخبر سرا مكتوما وتحدثوا بعد ذلك عن الزواج وكيف أنه حصن . فلو كان هذا الشاب مؤهلا لما استنزفته النساء . ونظر إلى أكبرهم سنا بزواية عينه وقال وعلى وجهه دلائل استخفاف :

ـــ احذر أن تعملها يا فؤاد !
فضحك الباقون . وقعت ضحكاتهم على صدورهم أو بين أكفهم أو في ثنايا الاستمارات والدوسيهات ... فأحسست أنني جرحت . ورجحت أن (فهمى) قص عليهم قصة المومس ، فثرت لكرامتى ثم سألت فى غضب ذلك الذى فتح باب الكلام :
ـــ ماذا تقصد ؟
فأجاب ملطفا من الحدة :
ـــ أقصد أنه من الخير لك أن تتزوج لتحفظ نصف ... نصف ... آه ...
وعادت الضحكات فعاد غضبى وأخذت أجمع أوراقى لأنصرف .
ولما رأى الباقون ما آل إليه الموقف لموا أطراف الموضوع حتى استحال إلى جد خالص . وقال أكبرهم سنا وبوقار مصطنع :
ـــ ليس فى الأمر ما يجرح الكرامة يا بنى العزيز ، لا تحاول أن تخلق إشكالا . أنت شاب هادئ ... إننا حقيقة ننصحك بالزواج .
وظلل الحجرة صمت قلق حتى انصرفنا ، وأخذت وأنا فى القطار أفكر فى أمر الزواج مادام هو أيسر سبيل للحصول على امرأة . لكننى وجدته مطلبا بعيد المنال .
ودخلت على الأسرة بوجه منطفئ ببقايا الغضب وآثار الهم ادعيت المرض حين استوضحتنى أمى سبب ما بى . على أنها نسيت ذلك بعد قليل وأخذت تحدثنى عن شئون (فاطمة هانم) .
سمعتها تصف ابن الأرملة بأوصاف جديدة : « علامات الرجولة بادية عليه اليوم » . كل شيء يتغير حتما . هل تذكر (صلاح) ابن

خالتك ؟ كان أخيب طالب ثم صار أنصح تاجر ؟ وهناك أطفال يولدون في حجم المفاتيح ثم يصيرون شبانا ، وفتيان يشرحون الصدور . كل شيء يتغير ... آه ... » .

وتنهدت وتمددت وطلبت كوبا من عصير الليمون ثم أسبلت عينيها كأنها تفكر ...

إن الأمر الوحيد الذي يشغلها هو أمر بنتها (بدرية) ... فأنا رجل أملك أن أدير شئون حياتي و (سميرة) جميلة تخطف العين بصفائها كما تفعل اللؤلؤة ، فضلا عن أنها موفقة في دراستها ففي جيبها مفتاح لبابين . وقد حدثتني أمي في عدة مناسبات أن الواجب الأكبر في حياتها ينحصر في مطالب بنتها الكبرى . على أنني أصبحت بعد سنوات من حياتي العملية كأنني آلة . شيء مصمت يجمع ويطرح ويضرب ويقسم ويأكل ويشرب وينام . ويفكر في حدود (أبونيه) القطار والملابس ووجوه من حوله في الديوان . وعقب ذلك الإحساس دب الملل إلى وجودي فشعرت كأنني أدور وأنا معصوب العينين كالثور في الساقية .

وكتمت تذمري عن أمي وكانت ملامحي غير الفصيحة سندا لي فيما أفعل . غير أن فراستها كانت تكشفني في بعض الليالي خصوصا عندما يصفو لنا الوقت فنتسامر . عندئذ تنطلق روحها العظيمة التي أحبها وأخافها . فتحدثني بأحاديث تعلم نكران الذات وتقسم مملكة الوجود إلى قسمين : سماوي تربح فيه التجارة ، وأرضي يسكنه الأنانيون .

وكان (فهمي) قريبا منا ... في (حلوان) فكنت أذهب إليه لأزوره وأحمل من أخباره كثيرا إلى إخواني .

كنت أحسده فى مرضه كما كنت أحسده فى صحته . جاءت إحدى صديقاته تعوده وفى عينيها دمعة وفى قلبها لوعة . وابتسم لها وهو واقف وظهره نحو الشباك ابتسامة عريضة :

— أوه ... حين نراكن ننسى حتما أننا مرضى ؟!

وضحك من صدره الأجوف وهو يضغط كفها بين كفيه وكنت جالسا على مقربة من النافذة أستطيع أن أرى الفضاء فتركت عينى تسبحان فيه . ولما عدت فنظرت رأيت روحه تتأجج فى عينيه . نفس لا تنهزم .

وانطلق (فهمى) عندما دخلت صديقته يتحدث عما يضيع به الوقت فى المصحة ، إنه يقرأ ويسمع الذين يريدون . وينظم حفلات سمر ويرقص ويغنى . ومن بين رنات الضحك كان السعال يتصاعد فى تتابع شبه متفق عليه كتتابع نقيق الضفادع . وكلهم هناك يدورون حوله ويسألونه ويلتمسون عنده التسلية .

وتذكرت ذلك كله وأنا أخوض الحدائق فى طريقى إلى مسكننا فاحتقرت الطينة التى خلقت منها وأنا أضع حذائى على حفنة سماد سقطت فى الممشى . كلانا يمثل الطرفين (فهمى) للتطرف وأنا للجمود . فلو أن شابا ما وقف فى منتصف الطريق بينى وبينه لكان شيئا عظيما . .

وفى اليوم التالى وقعت تجربة جديدة .

ذهبت وقت العصر قبل رجوعى من الإدارة إلى منزل (فاطمة هانم) بتكليف من أمى . وكان ذلك للمرة الأولى . حملت إليها نقودا طلبتها لحاجة . كانوا فى حارة ضيقة يكاد السكان يتصافحون فيها من النوافذ إن بذلوا شيئا من الجهد . وقلت فى نفسى وأنا أضغط جرس الباب شيئا غريبا :

ـــ لو فرضنا أنني وجدت (زينب) وحدها وأنها سمحت لى بالدخول وأنها فتحت باب الغزل فماذا يكون موقفى منها ؟

وتذكرت المصدور الذى مازال حبيب النساء ، يحلم بالشفاء ويرقص ويغنى فى الليل ليعود من جديد فيشاطرهن الحياة السعيدة .

ودق قلبى بعنف وحنق مع دقات الجرس . كان يطن كأنه فى فراغ ويوحى إلى بأن المكان ليس فيه من يرد . وكدت أيأس وأنصرف .

وحين استدرت راجعا صر المصراع وانفتح عن وجه (زينب) رأسها ملفوف بمنشفة لكن شعرها المبلول كان باديا من خلالها . وأحسست أن للماء سحرا إذا مس الوجوه النضرة . كان فى قسماتها نداء غير موجه لأحد ويقصد به كل أحد . وسلمت على بكف فيها رطوبة الحمام وأشارت إلى حجرة قريبة جدا من باب الدخول فلا يكاد الضيف يخطو خطوة فى الصالة .

وكنت موقنا أنها وحدها وإلا ما فتحت وهى على هذه الحالة . وفى خمس دقائق تماما أو تزيد قليلا كنت أنا أتفحص المكان وكانت هى تلبس ثيابها . ثم رجعت تحمل فنجالا من الشاى كأنه كان جاهزا . منحنية به نحو الأمام تحمله فى رشاقة تدهش المحروم .

ولم يسعنى أن أتصور إلا أنها زوجتى . وأنها لم تستطع أن تدخل الحمام صباحا بعد انصرافى فتأخرت ريثما تتم مطالب البيت . وهأنذا قد عدت فوجدتها تغتسل !! وهى تضع الشاى أمامى على المنضدة فى تلطف التى عشقت زوجها . وخيل إلى أن فى وسعى أن أشكرها بقبلة . أو أن أطلب منها قطعة من السكر . أو أن أشرب من موضع فمها على الفنجال أو أن أصنع ما أشاء !! وتدخل فورا فى الموقف المخدر الناعس امرأتان قويتان

تصلح كل واحدة منهما على انفراد أن تعيد إليه وعيه الكامل . إحداهما أمي والأخرى تلك التي قالت لى ذات مساء :

ـــ « توتو .. ألا ترانى ؟! » ثم جعلت تتأوه كأنها مجروحة ..

وفطنت إلى (زينب) وهى تؤنسنى بابتسامة :

ـــ أنت فى بيتك .. لم أتعب فى شيء فالوابور كان مشعلا بطبيعة الحال ... ذهبت أمى مع أخى إلى بعض ذوى الشأن ... آه ... نرجو أن يلتحق بوظيفة قريبا .. هيء هيء .. كل شيء له أوان ... أليس كذلك ؟! ...

ثم نهضت تتلوى وفى عينيها نظرة سقيمة ، وفتحت الباب للولد الأصغر . دخل وسلم . وجلس على أحد الكراسى فى بنطلون قصير تبدو منه أفخاذ سمينة . وكانت الجروح والكدمات التى على ركبتيه وساقه والخدوش التى فى وجهه موضع الحديث بيننا :

ـــ هل كنت شقيا فى صغرك هكذا يا أستاذ فؤاد ؟

(فتنهدت) :

ـــ كلا . ولا فى كبرى !

فقالت وكأنها تتحسر على شيء فاتنى :

ـــ ولا فى كبرك ؟! ... وهل يظهر البلح إلا فى موسم البلح ؟! ...

فقدمت إليها الأمانة التى أرسلتها أمى . فى صمت . ولم أستمع جيدا إلى كلمات شكرها لأننى كنت حزينا .

وحين وطئت عتبة الباب من الخارج كانت عربة البلح لا تزال واقفة ، حولها نسوة وصبيان . وصوت البائع يلعلع كلما فرغ من الوزنة وألقى الميزان ذى السلاسل فى ضجة مصطنعة :

ـــ « يا حيانى ... يا رطب » !!



٨

خرجت هذا المساء باكرا من الإدارة وأنا أشعر بالسأم . خيل إلى أن قطار الضاحية سينقلنى إلى المنفى . والدنيا شتاء والليل فى الضواحى طويل والجبل ينام منذ الغروب . وتهب ريح فتقفل النوافذ . ولا يرى الضوء إلا من مصابيح الشارع الواسع المكنوس ومن خلف المصاريع الخشبية . وعندئذ تئز الأشجار وحدها فى الطرقات والحديقة . وتأوى (بدرية) إلى فراشها باكرا من مجهود النهار . وتسهر (سميرة) تذاكر . وتجلس أمى فتتلهى بأى عمل أو حديث ثم لا تلبث أن يثقل رأسها بالنوم كأنها شربت فتنهض لترقد . وأبقى وحدى أسامر الليل وأستمع إلى نفسى . والليالى طويلة ، والنهار متشابه . والحركات الرتيبة حتى ولو كانت موسيقا تقتل فى الأعصاب توثب اليقظة .

ولما خرجت من الإدارة صممت على ألا أعود إلى البيت . سأذهب إلى جهنم ، أريد أن أغير اتجاهى لبضعة أيام حتى ولو إلى مستشفى .

وحجزنى القطار الذاهب إلى حلوان وأنا على وشك عبور (المزلقان) إلى ميدان (لاظوغلى) فوجدتنى بحركة غير إرادية أبصق على آخر عربة فيه وهتفت فى نفسى « مع السلامة » !

وهناك فى الميدان وقفت أحملق فى كل شىء وفى وجه هذا التمثال المغفل . وسألت عما عمله صاحبه ثم انصرفت .

واتخذت طريقا مضادا للمحطة التى أركب منها عادة حتى آمن على نفسى من العودة . سرت أفكر . وفجأة وثب إلى ذهنى خاطر . لماذا لا أذهب إلى بيت (فاطمة هانم) فأسأل ... عن من ؟ ... هناك أشياء كثيرة : هل توظف ابنها ؟ هل هى فى صحة جيدة ؟ إننا لم نرها منذ أسبوع كامل . هل تحتاج إلى معونة ما ؟ إن أمى مثل أختها وأحسن من أختها !!

لكننى لم أكن أحمل تصريحا بالزيارة .

وضحكت من أنفى . هل من الضرورى أن يحمل الرجال التصاريح ؟ وشتمت ناسا كثيرين فى سرى ، أنت تعرف بعضهم . لماذا لا أذهب إلى حيث أشاء ؟! ولماذا أقدم تفسيرا لكل عمل وتقريرا عن كل وقت ؟

كنت معبأ بطاقة شريرة ينبغى لها أن تفرغ . وهذه الطاقة يجب أن يفسح لها الطريق بشكل ما . فسرت أسرع الخطى إلى هناك .

وحين صعدت السلم الملتوى ورأيت مصباح جاز صغيرا معلقا فى ركنه لينير الطريق تذكرت الشرخ الموجود فى بيتنا . إنه يقع من سلمنا موقع المصباح من هذا السلم . ثم أعرضت عن الفكرة ودققت الجرس . وشهقت (فاطمة هانم) لأنها هى التى فتحت لى وسارت أمامى لتفتح حجرة الضيوف . وكانت أردافها الملفوفة تهتز بلين مع صوتها اللين

وحركتها الملساء . ترحيب أموى ناعم يجعل المرء يفكر فى تغيير أمه خصوصا لشاب مثلى .

وكان الخير عميما فى هذه الليلة ، فقد دخلت بيتهم مع الأفراح فابن الأرملة سيستلم عمله فى بنك مصر وقد ذهب ليعبر عن فرحه فى سهرة فى السينما مع بعض أصدقائه . وكان الولد الثانى فى الداخل يرفع صوته فى قطعة من الشعر . أما (زينب) فلم تكن دخلت بعد ...

ثم جاءت تحمل صينية عليها برتقال وسكاكين وفوط مخططة على هيئة مربعات . والدفء ينبعث من كل ما فيها فى هذه الليلة الباردة .

وقدمت لى كل منهما برتقالة. بدأت الأم ثم ثنت (زينب). ثم قدمت لى الفتاة طرف فوطة مبلولة ومعها ابتسامة فمسحت يدى ولم تغادر الأم مكانها فشاركتها الجلوس . وتناولنا الحياة من كل نواحيها إلا ما يثير ريبتى فى أنهم يحبوننى لغير وجه الله . وأخيرا فطنت على طرقة . لم تكن فى الخارج بل كانت فى نفسى حين تذكرت أننى مكلف أن أقدم حسابا عن الوقت . وكان الوقت يمر بسرعة فقد انقضت ساعتان ونحن جلوس . هل القوة التى تدفع (الوقت) فى مجرى الزمن تنبع من داخلنا نحن ؟!

واستأذنت لأنصرف . وحفت بى المرأتان تودعانى فى عذوبة . ومررت من بينهما لأخرج من الباب وأنا أشعر بلذة منغصة . ولم ينغلق المصراع خلفى إلا بعد أن هبطت عشرين درجة . وألقيت نظرة على المصباح وكان يغمز بعينه . ولم يكن الهواء فى الشارع جميلا ولا منعشا كما تخيلت .

كانت الساعة قد دخلت على التاسعة وفى السماء سحاب يحجب النجوم والليل كأنه متدثر من البرد . وأحسست بالمسئولية فخشيت

الخطى نحو محطة السكة الحديد وكان القطار آهلا بالركاب فالتمست العذر لنفسى :

ـــ كل هؤلاء عائدون إلى البيوت . ولا يزال غيرهم فى الخارج .

وحين نبح الكلب فى الحديقة وأنا أعبر فضاءها إلى درجات السلاملك انفتح الباب وظهر قوام أمى فى فتحته تحت النور المغلق فى الصالة . وكان القلق باديا على وجهها بشكل مزعج حتى أننى رثيت لها وتضايقت منها :

ـــ مساء الخير يا ماما .

فردت بعسر كأنها تحمل شيئا ثقيلا :

ـــ مساء الخير ... كل هذا الوقت فى العمل ؟

ففتحت لى باب الكذب فوقفت مترددا . وكنا فى هذه اللحظة قد دخلنا حجرتى وأشعلت نورها فانسكب قويا على وجهينا . وحملقت فى بعينين فاحصتين . وهى جالسة فى انتظار الإجابة وكفاها متلاصقتان موضوعتان فى حجرها .

قلت متلجلجا :

ـــ فى العمل ؟... لا والله ... قلت فى نفسى هذا المساء ... تنزه قليلا ...

فأجابت بموافقة أدنى إلى المخالفة :

ـــ لا بأس .. هل نقيد أبناءنا كما يقيد الدجاج ؟!... فقط ... قلقت عليك .

وأحسست أن بوادر غضب تلعب برأسى كبوادر السكر فقلت وأنا أشد بيجامتى من على الشماعة :

ـــ أنا لم أعد صغيرا لتقلقى على . إن (سميرة) نفسها لم تعد صغيرة !

ولم أتبين — وإن كان ذلك واقعا — أن كلماتى كانت كرجم الحجارة . كان وجهى بعيدا عن وجهها فشجعنى ذلك على ما فعلت .

ولما التقى بصرنا رأيت العجب فى عينيها مخلوطا ببوادر دموع : فندمت .

أتدرى علام ندمت ؟! على أننى نسفت القنطرة التى سأعبر عليها ، فليس فى الإمكان بعد الذى حدث أن أقول لأمى : إننى كنت فى بيت (فاطمة هانم) فوجدت نفسى مضطرا إلى الكذب ، قلت فى ملاينة مفاجئة :

— آسف يا ماما . من حقك أن تقلقى على ولو من حوادث الطريق .. آ ... أنا ...

قالت وهى تنظر فى حجرها لكن بتأثر وحنق على الفطرة مثلا تقوله الأمهات فى المآزق :

« قلبى على ولدى انفطر ، وقلب ولدى على حجر » ... لا تحزن يا بنى . أعاهدك على ألا أعود . إن شئت .

وهممت أن أعترف وليكن ما يكون . لكنها قامت لتجهز عشائى . وجلست آكل وحدى فقد زعمت أنها تعشت . وكانت (بدرية) نائمة منذ وقت باكر من أثر مجهود النهار . أما (سميرة) فقد كانت منكفئة على الكتاب .

* * *

وفى الصباح رأيت تساؤلا وقحا فى عين (بدرية) ، وكلاما يشبه الوشاية بظنون أمى كان يخالط ابتسامة (سميرة) .

وظللت طول النهار شاردا أجمع بدل الطرح وأضرب بدل القسمة . والشجار من حولى لا ينقطع بين اثنين من الزملاء ، نهار كله دخان !

ولما عدت وقت الظهر لم أجد أمي فى البيت . وحبرتنى (بدرية) وهى تضع الغداء أنها ربما تتأخر فهناك طلبات راحت تقضيها . وحدثتنى نفسى أنها ستمر على فاطمة هانم ، إن لم يكن ذلك حتما ففى أغلب الظن .

وتغديت ونمت . واستيقظت وقت العصر والشمس دافئة تذهب الجبل المبلول وتهب الضاحية حياة دفيئة . وسألت عن أمى فعلمت أنها فوق . كانت تطعم الدجاج وتفحص الأرانب فى الحظيرة التى أقمناها فى الركن . فصعدت إليها ولم أشأ أن أنتظر نزولها .

لعلها لم تسمع وقع أقدامى لأننى كنت أمشى بخفة . ولما اقتربت منها سمعتها تدندن بصوت حزين وكان ظهرها إلى ناحية السلم فأردت أن أنبهها بطريقة مرحة ضاحكا قبل أن ألقى إليها التحية :

ـــ الله ؟! .. أتغنين يا ماما ؟! هل تعرفين أن صوتك جميل ؟!

فسكتت وألقت إلى من فوق كتفها نظرة وقالت باختصار :

ـــ يمكن !! ...

فانطفأ المرح فى نفسى ووقفت حائرا كمن ضل الطريق .

وانقضت فترة رأيت فيها تطاحن الدجاج وانزواء الأرانب وسكون أمى الذى أعرفه ويعرفه الناس فى الطبيعة باسم السكون الذى يسبق العاصفة .

ـــ هل أنت مريضة يا ماما ؟!

قلت ذلك برفق من يطلب الغفران ـــ فى صمت ـــ عن ذنب متفق عليه دون أن يتعرض أحد الطرفين لإثارة الموضوع . فأجابت بنفس الإجابة وباختصار :

ـــ يمكن !!

فتركتها ومشيت نحو السور إلى حيث ألقيت نظرة على الدنيا : طريق المرصد وكهوف الجبل والكلب المنزوى عند شجرة الخروع وشجرة البرتقال المنفوضة من الثمر . وقبل أن تهم بالنزول إلى تحت اعترضت طريقها . وقلت لها بقوة من يصر على تصفية حساب لكن الابتسامة كانت على وجهى :

ـــ لماذا أنت غاضبة ؟

ـــ أنا ؟!

ـــ نعم !

فقالت بهدوء شديد وبعد فترة صمت :

ـــ لا شيء إلا أنك أوقعتنى فى إحراج . كان يجب أن أحمل إليها بعض الهدايا بمناسبة توظيف ابنها . فقد ظننت أنك بلغتنى وأننى ذهبت أهنئ . (وعندئذ كتمت عنها ما فى نفسى ثم نظرت إلى نظرة حدت بها بعيدا عنها على حين ظلت تقول) :

ـــ لماذا تكذب على أمك ... هل تظن أننى أعترض سبيل رغباتك ؟! ... دخلنا يكفينا يا بنى العزيز . على أنك لم تبذل بعد تضحية فى سبيل أحد !

وظللت صامتا لا أتكلم والأشعة الحمراء على وجهى ترسم الخجل مزدوجا . فلما رأت أن خصمها لا يقاوم نبع من قلبها الحنان :

ـــ يخيل إلى أنك الآن تتمنى بينك وبين نفسك أن ... أموت .

فاغرورقت عيناى بالدموع وقلت بصوت مخنوق :

ـــ إلى هذه الدرجة ؟! أبدا والله العظيم !!

وانتحيت إلى ركن السطوح فتركتني ونزلت . وظللت واقفا حيث كنت حتى سحبت الشمس أشعتها من على الرمال وهبط الظلام وبرد الجو .

وحددت هذه الحادثة الاتجاه النفسي لأمي فأصبحت جازما بأنها تخاف على من (زينب) . وأنها تريد المصاهرة على وجه آخر . فأفقت وأخذت أترقب سير العلاقة بين الأرملتين بحرص شديد .

إن (فاطمة هانم) تبدو ساذجة وأمي شديدة العمق ، لكن علاقة أخرى بدأت تجد بين أمي وأحدى جاراتها فى البيت الملاصق . وكانت العلاقة القديمة قائمة كأنها طلل ومن خلال الهدايا التى كنا نتبادلها مع الست (فتحية) بدا التصميم الجديد ، فقد ألقت أمي شبكتها فى بحيرة أخرى .

٩



رأيت على الفطور الصبح طبقا من البليلة باللبن والسكر والزبدة وجوز الهند . ولما سألت عن مصدر هذه الخيرات عرفت أنها من عند (فتحية) وكانت شواغل شتى تلعب برأسى وأنا فى القطار . وحين ذهبت إلى الإدارة كان الموظفون يتكلمون عن قرب عودة (فهمى) إلى العمل .

وصوروا الحادث على أنه معجزة . فرد أكبرهم سنا وهو ينظف القلم بقطعة من النشاف : « شباب ... يا افندم الشباب هو الذى صنع المعجزة لا الطب ولا الدواء . » ثم انكب على الورق يجمع ويطرح .

وقال أحد الشبان ممن يتمنون الشر للناس بلا مبرر شخصى ولا مبرر عام قال وهو يشير إلى النافذة : إنه على كل حال مثل هذا اللوح من الزجاج ... مشروخ ومتماسك . فهل ينجو من ريح الشتاء ؟

فنظرت إليه باشمئزاز وصممت موقنا أن (فهمى) لن يموت ببساطة . فهو يجدد بالمرح خلاياه كل مساء وصباح ، مشدودا إلى (الحياة) بسلسلة (الحب) ثم تأوهت ... (آه ...) !!

وجاءنى من أقصى الحجرة صوت يقول فى دعابة : « سلامتك يا بطل !! » وانفتح الباب بحذر وأطل منه وجه « عم سيد » ، ثعلبيا خبيثا على ملامحه بعض من الأخبار . وأشار إلى برأسه فخرجت من المكتب .

— ناس بانتظارك فى الصالة الخارجية يا أستاذ فؤاد !!

— من هم يا « عم سيد » ؟

— لم يخبرونى بأسمائهم .

كانت هى هى بلحمها ودمها وشفتها التى تشبه حبة الكريز إذا ما ارتخت فى ابتسامة . عليها ثوب ربيعى أبيض بأزهار زرقاء .

ولم تكن (زينب) وحدها فقد كانت معها أمها ، فى مسوحها السود : معطف الحرير فوق الفستان . والطرحة ملفوفة على وجهها التركى . وبقية الكحل فى أهدابها المهوشة . وابتسامة حنون مغبوبة شاكية تتخايل على شفتيها .

والتفت خلفى بحركة لا إرادية كأن شخصا يرانى !! ثم استحيت من نفسى وأقدمت وقلت بلهجة لم تخل من الهزات :

— خيرا يا خالتى ؟

فردت بلهجة متكسرة وهى تهز رأسها فأشعرتنى أن القصة طويلة :

— هل نتكلم هنا ؟ إن كان عندك وقت فسر معنا عدة دقائق .

وخرجنا . أنا أمامهما وهما ورائى . واتجهنا إلى ميدان (لاظوغلى) . وحين استوى بنا السير رأيت نفسى بين المرأتين . وقبل أن تفتح السيدة كلاما فكرت بسرعة موازنا بين صرامة السيف ولين الأفعى .

إن فاطمة هانم تبدو بلهاء تستطيع أن تصل إلى ما تريد . تسرق الروح كما يفعل الترف وتسلب العقل كما تفعل الخمر . أما أمى فإنها قاطعة كحد السيف .

ولما وصلنا إلى (المزلقان) حجزنا القطار الذاهب إلى (حلوان) فنظرت إليه كأنه يعرف . وما لبثت (فاطمة هانم) أن فتحت الموضوع فتكلمت ونحن نضرب فى الطرقات كالعشاق لا يجدون ما يلجأون إليه :

ـــ ألم تخبرك ماما عن الذى حدث بيننا أخيرا ؟

ـــ لا . مطلقا !!

فبرق الدمع عند أهدابها كأنها تذكرت مأساة . ثم سارت إلى جوارى حتى تلامس كتفانا وأنشأت تحكى :

« لقد تغيرت (ماما) فجأة ... لست أعرف السبب . كان ذلك بعد زيارتك الأخيرة لنا . كانت أختى . إننى مائلة البخت ، كنت أشكو لها كل ما يؤلمنى حتى سوء تصرفات ابننا الخائب ليته لم يتوظف . وفجأة أعرضت أمك عنى !! » .

« شعرت أن هناك ذنبا لم تصارحنى به فاعتذرت إليها لكنها لم تغفره حتى اليوم الذى نلتقى فيه فى المالية لا تفعل أكثر من أن تصافحنى وتنصوف » .

كنا أختين !! .. (وبكت) .

وأمسكت (زينب) كفى عدة مرات وهى تعلق على الحديث بطريقة لا تحدد المسئولية واصطدم ذراعها فى جنبى واصطدم كتفى فى صدرها . آه ... ووجدتنى مضطرا أن أضع كفى على ظهرها ونحن نعبر شارعا مزحوما وكانت أمها قد تسرعت وعبرت قبلنا . ولمست الحياة عن قرب فيها . أشبه بالذى ينظر إلى الثمار من خلال السور . وأحسست حيال أمى بضغينة مشوبة بالرثاء وإن لم أحترم فى قرارة نفسى الطريقة التى سلكتها (فاطمة هانم) معى بمحاولتها الدخول من الباب الخلفى . على أننى شعرت بتجاوب حيال (زينب) . وهذا ولا شك لم يقع بين (بدرية) وبين ابن (فاطمة هانم) على الرغم من أن أمى صحبتها إلى بيتهم يوما ما .

وامتد بنا المسير وامتد بنا الحديث . وبدأ هذا العمل غير الواضح يتخذ فى نفسى وضعا عاديا شائعا مألوفا . وكانت المرأة الكبيرة تتدفق بالحنان وهى تتكلم حتى تخيلت أننى ابنها . وعلى الجانب الآخر كانت الفتاة تناوشنى برفق وحرص ونعومة . وكان على أن أعلن قرارى لأنهما طالبتانى به عدة مرات . فأجبت ونحن واقفون عند مفترق طرق :

ـــ كان على أمى أن تشرح لكم وجهة نظرها . لكن ... لا تحزنى يا خالتى ... ولو من أجل خاطرى أنا .

فلمعت على وجهيهما ابتسامة من نوع واحد . تحمل معنى من ظفر فجأة بشىء غير متوقع . وقالت الأم :

ـــ هل تريد والدتك أن تقطع العلاقة بيننا فتحرمنا أن نراك ؟!

ونظرت إلى (زينب) فإذا بها مطرقة تشير أهدابها إلى خدها الوردى فلم أجب إلا بقول :

ـــ (تتعدل) . وصافحتهما وانصرفت .

ولما رجعت إلى الإدارة أحسست بضيق شديد . وكان الزملاء يثرثرون وعادوا ثانيا إلى موضوع (فهمى) فقرروا أن أمره لن يصلح إلا بالزواج .

وقال أحدهم :

ـــ بالعكس . ليس الزواج من مصلحته .

ـــ بالعكس . بل هو أصلح له لأنه لن يكف عن دائه القديم . (وغمز بعينه) .

ـــ ليسكت المرضى حتى يتزوج الأصحاء .

وأحسست أنهم يعنونني وأنهم يعرفون حقيقة الوتد الذى شددت إليه فقلت دون أن أشعر :

ـــ كل إنسان أدرى بمصلحته .

فقال أكبرهم سنا وهو ينظر فى اتجاه آخر :

ـــ أنت اليوم عصبى يا سيد فؤاد . مالك ؟ هل لطمك (الحب) على خدك الأيمن فأدرت له خدك الأيسر ؟ ... يا بنى ...

فوقعت ضحكاتهم على صدورهم وعلى الاستمارات والدوسيهات لكننى لم أعلق بشىء .

* * *

قلت فى نفسى وأنا أنزل ظهرا إلى رصيف المحطة : لقد نسيت !! كان يجب أن أسأل (فاطمة هانم) عما إذا كنت فى حل أن أخبر أمى بهذا اللقاء والعتاب القائم فى نفسها ونفس بنتها !

وكففت عن المسير على مقربة من موقف (الحنطور) وكان أحد السائقين جالسا على الكرسى ورأسه مثقل بالنوم وعيناه مغمضتان فى

هناوة بال أو على الأقل لم يكن فى رأسه مشكلة . ولم أجد حلا مناسبا . ولم أرسم خطة معينة . بل تركت الظروف تملى على ما تشاء وسرت بعد أن أفقت على عطسة حصان .

وكانت أمى — على الغداء — مرحة قليلا تحاول أن تذكر تفاصيل رؤيا رأتها فى الليل بيضاء مبشرة . و (بدرية) تشكو مغصا حادا جالسة معرضة عن الأكل و (سميرة) كأنها زهرة تخشى أن تلوث شفتيها وهى تأكل ، وتنظر أحيانا إلى صدرها الناهد من فتحة الثوب .

واختليت بأمى بعد الغداء وكنت فى هذا اليوم نادر الشجاعة . وسألتها لأجس المخاضة قبل أن أدلف إلى الماء :

— (فاطمة هانم) لا تأتى إلينا كثيرا ... هل هى مريضة ؟

فضحكت محاولة أن تظهر بمظهر الأذكياء . وجلسنا على الكنبة تفصل بيننا المساند وكانت أمى فى هدوء صاحب الحق الواثق من عدالة القاضى فأخذت تقول :

— إننى سقيمة من الفهم . إن هذه المرأة واسعة الحيلة . ظننت أنها ستعطينا فإذا بها جاءت لتأخذ منا !! هل أنت فاهم ؟!

— فاهم !! (وأومأت برأسى) .

— لذلك رأيت من المصلحة أن أبتعد عنها . إن بيتنا لا يحتمل هزة واحدة يا فؤاد وأنت يا بنى تعرف كل شىء .

ثم بدا عليها التأثر واعتراها ضعف النساء ونظرت باسترحام يخالطه حب وثقة . فاهتززت لذلك هزة شديدة حتى كدت أبكى . ولم أجد مجالا لأقول شيئا عن حوادث اليوم ، ولم أشعر بندم كبير لأن الظروف هى التى تجبرنى أن أكذب على أمى .

ـــ لا تخافى يا ماما !!

وكان صوتى مخنوقا وقواى خائرة . لكن الحديث انقطع بيننا على أثر دخول (بدرية) لتقول بصوت هامس كأنه يحمل سرا .

ـــ ماما . (الست فتحية) تعبر الباب الخارجى فى طريقها إلينا .

وفرت تتلقاها ثم قامت أمى بعد أن ألقت على نظرة كان لها مدلولها ...

* * *

وفى المساء مالت أمى تقول :

ـــ لقد اتفقنا يا فؤاد .

وكان على وجهها دلائل ظفر غير كبير . فسألتها متلهفا :

ـــ علام يا ماما ؟

ـــ على زواج ... سميرة !

ـــ سميرة ؟!

ـــ نعم . سميرة !!

وأكدت قولها بعينيها ، ففهمت لماذا بدت الفرحة غير كبيرة . ونظرت فى كفها وهمست :

ـــ لم يكن هناك مفر أبدا . حاولت أن أجعلهم يعدون بالترتيب لكنهم أصروا على جعل (ثلاثة) قبل (اثنين) .

ـــ هيه ...

ـــ ونمت ليلتئذ مثقلة بالفكر فإذا أبوك يزورنى ويقول لى :

« لا تكونى عنيدة يا أم فؤاد !! ... فى حياتى وبعد موتى ؟! ... ما هذا ؟! فاستيقظت أنتحب !

ـــ هيه ...

ـــ رشدى ؟!

فقالت ولم تفارقها النبرة الحزينة :

ـــ رشدى . إنه مدرس على أبواب المستقبل . لا يقيم فى بلد واحد ، لكن ... مع السلامة . (وطوحت كفها كأنها تذب بعوضا وعلى وجهها علامة تعب) .

ـــ تتكلمين بحزن !! ألا تشعرين يا ماما أن عقبة ما ستتنحى عن الطريق ؟!

فتنهدت :

ـــ تمام . لكن (بدرية) تشغل بالى باستمرار . لا تلمنى يا بنى !

ومشت الحياة فى بيتنا بطريقة تدعو إلى التأمل . انقطعت (سميرة) عن الدراسة وأقامت مع أختها طول الوقت . ونشب عداء خفى بين الفتاتين . كانت (بدرية) تنظر إلى أختها على أنها مغتصبة سلبتها حقا طبيعيا منحتها الحياة إياه . والصغرى تحتمل فى صبر صامت وتبكي عندما تدرك أنه لا مخرج لها . وألقى عبء البيت عليها عقابا لها !! نتيجة إضراب (بدرية) عن العمل وعدم تعرض أمى لها مدفوعة بسببين : العطف والمدارة .

ثم تفاقمت المداراة حتى أصبحت شبه تحيز ، لأن الكبرى كان تلبس وتتزين ثم تنتحى ناحية بعيدة عن أختها فإذا أمى ـــ القاطعة كالسيف فى معاملتها لى ـــ تجنح إلى حيث تجنح الكبرى فتحس الأخرى بعزلة وصمت فتبكى وحدها .

وفى أحد أيام الجمع جاء العريس يتغدى عندنا . وطبيعى أن تقوم فى البيت استعدادات وتطبخ فيه أصناف غير مألوفة حتى الكشك بالدجاج . ولبست (بدرية) منذ الصباح ملابس نظيفة وانتحت ناحية بعيدة من البيت وادعت أن آلاما حادة تفرى كليتيها وأنها لا تستطيع إلا أن تستلقى على الفراش . أما الصغيرة فقد كانت أشبه بالخادم الحسناء . منذ مطلع الصبح وهى تكنس وتمسح بصحة رقيقة وكفين مثل بروة الصابون وحركات لطيفة مثل حركة بنات المدارس فى حصة الألعاب .

ورأيت المنظر بنفسى ، فأثارنى الوضع . فاستأذنت أمى فى أن أتصرف ، لكنها لم تسمح لى وخنتنى عن الفتاة بنظرة جانبية كأنها خنجر . ثم أمسكت ذراعها ودخلت بها إحدى الحجرات . وبعد ربع ساعة خرجت البنت دامعة العين ، والأم وعلى وجهها غضب . لكنها بعد ذلك خلعت ثيابها النظيفة ودخلت المطبخ .

أدركت أن فى الدنيا ناسا يحملون فى كيانهم مؤهلاتهم التى تساعد الغير على أن يظلمهم . وقد كانت (سميرة) واحدة من هؤلاء .

كانت تقول لى بعينيها النديتين اللطيفتين : لا أريد أن أتزوج . فليتك تساعدنى . أو تقول أحيانا أخرى : متى أخرج من هذا البيت فأنا عاجزة عن الدفاع غير قادرة على المتاعب .

وكدت أشعر أنها غريبة ليست بنت أبى . وانتقل هذا الإحساس إلى أمى التى غلبتها الأوضاع وقهرتها الحوادث . فبذلت جهدا كبيرا فى إنهاء المهمة والفراغ من التجهيز .

وكانت تغيب كثيرا عن البيت وترجع محملة بالبضاعة دائخة شاحبة الوجه . ورأيتها مرة . قابلتها وهى نازلة من القطار تحمل تحت إبطيها حاجات ثقيلة ونقطة عرق معلقة على ذقنها ، وتراب الجبل راسب فوق كتفيها وفى مشيتها عرج خفيف فخطفت منها الأشياء وعدت معها إلى البيت والدموع فى مقلتى . وارتمت على الفراش ونادت (بدرية) لتدلك أطرافها لكنها انصرفت فى سماجة ، متجاهلة أنها سمعت . أو كأن أختها هى المكلفة بإصلاح هذا لأنها هى السبب !

ولما رأيت شبه فجيعة طافية على ملامح أمى أقسمت ألا يقوم بهذا العمل غيرى . ودلكت كفيها ثم قبلت إحداهما وشرعت أدلك لها قدميها .

وتبادلنا نظرة حنان . وكان فى عينيها استغفار خفى . وفجأة سألتنى سؤالا لأول مرة :

— فؤاد !

— نعم .

— أتحب أمك ؟

فقلت مبتسما :

— إلى متى تظلين تطلبين الدليل ؟!

فصمتت قليلا ثم قامت فجلست فى الفراش وهمست :

— بعد زواج (سميرة) نكون قد قطعنا نصف المرحلة .

— يعنى ؟

— يعنى أننى أرجو أن أعيش حتى أزوجك .

فدب الفرح إلى قلبى كأننى طفل وعد بلعبة وأعلنت لها فى حماسة أننى مستعد أن أفعل كل شىء من أجلها حتى لو حرمت على الزواج .

فوسعت عينيها وهمست تقول :

ـــ لا تقل هذا . أريد أن أعيش من أجلك .. ولكن ... هب أنك تزوجت امرأة حسناء فهل تراها قادرة على أن تنسيك أمك ؟

فسألت مستبعدا فرضها :

ـــ وهل ... (لكننى تحولت إلى طريق آخر) ستفعل ؟

ـــ غالبا ما تفعل الزوجات ما قلته لك .

ـــ وهل ... (لكنى تحولت إلى طريق آخر) ستفعل (سميرة) مع الست (فتحية) نفس الشىء ؟

فضحكت ملء صدرها وقالت وهى تربت على خدى :

ـــ يا لك من ولد ناصح . فؤاد . لقد كبرت !!

١٠



ملأ الضجيج أنحاء الإدارة فى هذا اليوم بعودة (فهمى) إلى العمل . كان على وجهه نداوة الرضيع . نضارة نباتية لا تدل على القوة لكنه كان وسيما على كل حال . وجلس يحكى عن الليالى التى سهرها والآلام التى كانت تنتشر فى كل ركن . فقال له أكبرنا سنا ليخرجه عن هذا المجال :

ـــ دعك من هذا يا حلو واحك لنا عن مغامراتك هناك .

ـــ هناك ؟!

ـــ نعم . ألم يكن هناك ممرضات من النوع الذى جاء يسأل عنك فى غيابك ؟

ومن خلال عاصفة الضحك أطل وجه (عم سيد) من فتحة الباب والاهتمام باد على محياه وأشار إلى بسبابته فخرجت .

ـــ من يا « عم سيد » ؟

ـــ هم نفسهم .

ـــ هم نفسهم ؟!

ولكننى رأيت (زينب) وحدها .

ونظرت إليها فى سهوم . كنت فى هذه المرحلة فى صف أمى أناصر قضيتها . وحين تظفر القضايا ببوادر نجاح يأخذ عدد مناصريها فى التكاثر .

وبدا جمالها ذليلا شيئا ما . ووجهها على مقربة من أذنها شديد الحمرة كأنها صفعت بكف . واهتزت أهدابها عجبا من جفاف لقائى فأفقت لنفسى :

ـــ ماذا حدث يا « زينب » ؟

فقالت بلين وطريقة كأنها هزيمة :

ـــ لا شيء . غير أن لقاءك لا يشجعنى على أن أتكلم ... هل أنا مخطئة فى مجيئى إليك ؟

وببساطة أوقفتنى موقف المعتذر . وسرنا جنبا إلى جنب وفى نفس الاتجاه ... نحو (لاظوغلى) . واعترض القطار سبيلنا ذاهبا إلى (حلوان) . ووقفنا على مقربة من الشريط حتى تمر آخر عرباته . ومن إحدى نوافذها أطل وجه حبيبين كانا واقفين فى النافذة ملتصقين والشاب يقول للفتاة فى أذنها كلمة . فتبادلنا نظرة ونحن نعبر الشريط . وسألتها ثانيا عن صحة (ماما) لأننى لم أجد ما أقول لها ، فإذا بها تتنهد معلنة أنها جاءت إلى من أجل (ماما) :

ـــ أنا واثقة أن طلباتى ستقع من نفسك موقعا عزيزا .. هيه ؟

وكنت فى هذه اللحظة أتساءل عما إذا كانت هذه بداية خطة ؟؟ لكنه لم يسعنى إلا أن أجيبها :

ـــ بغير شك .

ـــ كان ممكنا أن أذهب إليك فى البيت لأرى خالتى أم فؤاد على الأقل ... لكن ... آه ..

ـــ لا تقطعى الحديث وتتأوهى .

فسألت برقة :

ـــ لماذا لا تبدو هادئا كطبعك . ألا ينبغى أن نكون خيرا من أمهاتنا ؟! .

ولم تدع فرصة لأعلق على كلامها بل استطردت وكأنها انفعلت من الموقف :

ـــ إنهن لا يحسن المحافظة على الصداقة . كان عندنا مدرس يقول دائما : « إن الصداقة تحتاج إلى مهارة نادرة لصيانتها . وليست البراعة فى أن تخلقها لكن البراعة فى أن تستبقيها » .

وأحسست أننى حمار .

كيف تستطيع مثل هذه الفتاة أن تقول مثل هذا الكلام ؟ لا بد أنها تستقيه من منابع لا أعرف أماكنها . هناك إذن للمعرفة مدارات جديدة غير الأمهات والمكاتب والزملاء والجرائد اليومية !

ثم همست فى قرارة نفسى : يا لها من زوجة !!

ـــ وهل هذا وقته يا مغفل ؟!

ندت هذه العبارة إلى أذننا فى برهة صمت خيمت علينا ونحن سائران ـــ من فم ميكانيكى كان يرقد تحت سيارة ليصلح جوفها . وكان صوته مشحونا بالحنق فى الوقت الذى كان زميله فيه يقهقه فى الهواء الطلق . فقد كان يعابثه . ثم جددت (زينب) حديثها :

ـــ إن أمي محتاجة إليك .
فأشرت إلى صدرى لأتأكد :
ـــ أنا ؟
ـــ نعم . أنت .
فقلت في نفسي :
ـــ « وأمي كذلك !! » .
ثم رفعت صوتى قائلا :
ـــ تحت أمركم .
ـــ بما أنك موظف في الصحة ولك صلات بالمستشفيات فهي ترجو أن تنال معونتك لتدخل قسم الجراحة لأنها محتاجة إلى عملية بسيطة .

ومن انكسار إحدى عينيها وتخايل ابتسامة حذر على شفتيها فهمت أنه من الأنظف ألا تسمى العملية . ووعدتها بأن أمد إليها يدى . وكنا نضرب في الشوارع كما فعلنا من قبل كأننا عشاق بلا مأوى .

ومنذ تلك الوهلة التى رأت فيها استعدادى لتقديم المعونة أحسست أنها أكثر التصاقا بى . والدنيا صيف . والظل فى بعض الشوارع كثير ضيق كأنه شريط . فكنا نجد أنفسنا مضطرين للتقارب .

لمست أردافها مرة بظهر كفى ثم لمست صدرها مرة بجنب ذراعى فأحسست بنشوة تحولت حالا إلى شعور بالحرمان ثم إلى حسرة غامضة كأنها بلا سبب . علقت بالنفس إلى مدى ساعة .

وفى فترة صمت ظللت مشينا سألتها عن أخيها . فلم تفعل سوى أنها رددت رأى أمها فيه . إنها تدعو عليه آناء الليل وأطراف النهار وتتمنى أن لو كنا كلنا بنات . مدين مسرف خائب وعما قليل ينقلب إلى سكير .

فتمنيت أن لو سمعت أمى هذا الكلام . ثم هممت أن أخبر (زينب) بما آل إليه حال (سميرة) لكننى وجدت حرجا فسكت .

وعادت الفتاة تقول :

— إن خالتك (وتقصد أمها) قد تغيرت كثيرا . هل تذكر هدوءها ووداعتها يا فؤاد ؟ كل هذا قد استحال إلى نار . وفى أول كل شهر تحسب — مع المعاش — ما أخذته من الدنيا . ثم تعلن أنها لم تأخذ شيئا . وتدق كفا بكف وتدمع عيناها .

وكانت الفتاة تحكى بجد وحنان وسخرية فى وقت واحد كأنها ترى ألا داعى للسخط وأن المستقبل ربما حسن . وخيل إلى أنها تقول بعينيها : وأنت من كنوز المستقبل .

وتطور الحديث إلى خلاف نشب بينها وبين أمها أخيرا . إن أمها لم تعد تقبل نقاشا فى شىء . كانت قبل ذلك أهدأ من النسيم فقلبها المرض وسوء المعيشة إلى زوبعة .

— وهأنذا بعد تفكير طويل قررت أن أستنجد بك .

فأشرت إلى صدرى مرة أخرى لأتأكد :

— أنا ؟ ...

فاستطردت وكأنها لم تسمع سؤالى :

— فكرت أن أكتب إليك ولكننى فضلت أن ألقاك ... إن أمى تعذبنى يا فؤاد ...

وأحسست فجأة أننى أمام غريق . وبدا زندها العارى على مقربة من ذراعى فأمسكتها منه كأنى أخاف عليها أن تغوص فى الماء . وانصبغ الموقف — بطريقة مرسومة — بصبغة شاعرية حنون حتى بدت شفتها

السفلى فى متناول فمى . وكان الكابوس يرابط على مقربة من هذا المناه اللذيذ بتذكرى (حلوان) وكل من فيها . وعرفت ساعتئذ أن بعض النزوات الحيوانية قد يساعد على خلق المشاعر كما تساعد الموائد على إشاعة البهجة فى ليالى الفرح . وهمست لها بنبرة حب ، وللمرة الأولى فى حياتى :

ــ زينب . احكى . لا تخافى !

وبدت المسألة أضخم مما كنت أتصور . قالت :

ــ كان لا بد أن أستنجد بك . يجب ألا ننسى كبرياءنا إلا إذا تأكدنا من كرم من نستغيث به . أمى تريد أن تزوجنى لحيوان . لتاجر بقالة فى حينا مسن قصير ضخم كأنه برميل زيتون . تريد أمى أن تصفى المشاكل بأسرع ما يمكن ، لأن خيبة أملها فى الولد لم تجعلها حريصة على البنت . يكفيها همها وهم الولد الأخير الصغير الذى رأيته . على أنه يبدو أنه سيكون ألعن من الذى فات . لقد ضرب أحد الغلمان بمدية فى كفه فى عراك فى الحارة . وها نحن أولاء فى حيص بيص . المهم فى الموضوع هو أننى أريد معيشة معينة . إن الأشياء التى تعجبنى غير الأشياء التى تعجب هؤلاء الناس . وأنا أقرأ وأسمع الموسيقى فى بيت إحدى صديقاتى القادرات وأستعير منها كتبا ...

ثم سكتنا معا . وكان كل شىء من حولى يئز . عجلات الترام وصفارات الكمسارية ومحركات السيارات وحتى حفيف ملابس السيدات . فاستحالت الأصوات فى أذنى إلى صفير دائم .

وتذكرت الحقوق الطبيعية لكل قلب وأننى صاحب نصيب فيها . و (فهمى) المصدور ، والمومس ، والفرص التى تأتى قبل الأوان وبعد

الأوان فقط . كأنها الطفلة المعصوبة العينين التى تبحث من الهدف فى اللعبة المشهورة . وتذكرت أننى قطعت نصف المرحلة برفقة أمى وأنه من العار أن أتركها وحدها . فربما أدركها الوهن فى منتصف الطريق .

قلت لزينب وأنا أفك ذراعها من يدى وكنا واقفين على مقربة من النافورة :

ـــ دعينى أفكر .

فاستدركت كمن نسى شيئا :

ـــ لا . لا تعالج الموضوع على أنه كارثة . أردت فقط أن أشرح عواطفى نحوك . على أن المهم هو أن تدبر سريرا لأمى فى أحد المستشفيات ... سأعمل على رضاها ولو كلفنى ذلك عمرى . على أن رضاك عندى فى المنزلة الأولى . ثم قالت وعينيها فى عينى :

ـــ وداعا !!

وتركتنى وسارت . ووقفت بعد برهة أنظر إلى الماء المنبثق من النافورة وهو يطعن الهواء كأنه سيف .

* * *

وفى بيتنا كان كل شىء قائما على قدم وساق . كانت أمى تريد أن تنفض يديها من غبار المعركة . ولم أحدثها عن شىء مما جرى مع « زينب » . لم أكن صادقا معها فى يوم من الأيام ، لأن الذين نخافهم لا يمكن أن نصدقهم القول . كنت دائما كمن يكلمها من وراء الباب . وذلك عمل غير صالح .

وفى البيت منجدون وقطن وزهريات وملابس وصينى . وكمبيالات ووصول . وحزب يمين وحزب شمال .

والخصام شبه دائم بين الفتاتين . الصغيرة ضعيفة الحيلة تسترضى أختها النافرة باستمرار . خصوصا فى الأيام التى كان العريس يزورنا فيها .

وفى أحد هذه الأيام رجعت من الخارج فوجدت عراكا حقيقيا بين أمى (وبدرية) وكان ذلك لسبب عادى لكن شهرتنا بحسن النية هى الشىء الوحيد الذى يخفف من أخطائنا عند الناس . ولم تكن بدرية معروفة بحسن النية .

كانت تنقل إحدى الزهريات التى تخص أختها فأفلتت منها وسقطت . كان فى كفها بقايا إدام . فساعدها هذا على إتمام الحادثة . ولم تذهب (سميرة) لترى ما حدث ، وكانت أمى فى هذه اللحظة جالسة تحسب ما تبقى من طلبات وفى نفسها إحساس بالمسئولية . وأفاقت على صوت التحطيم فلما رأت ما حدث لطمتها على خدها ففرت ترغى وتزبد واعتصمت بالحجرة العليا فى السطح وصممت على ألا تنزل . وأودعت أمى حنقها وأحزانها فى حطام الزهرية فأخذت تتناول القطع الكبيرة منها ثم تعيد تحطيمها على البلاط .

وانقضى اليوم على أسوأ ما يكون وكان رشدى ينظر إلى وجوهنا ويتساءل عما إذا كان هناك شىء يزعجنا .

وظللت أنتظر عودة (زينب) لمدة أسبوع ولكنها لم تعد . وفى فترات هدوئى والساعات التى تسبق النوم المشحونة بالخيالات والأصوات المبهمة ـــ كنت أستعيد حديثها كلمة كلمة وأحس نحوها بالشوق .

وقلت فى نفسى لماذا لا أذهب فأسأل عنها . ماذا يجرى لو فعلت هذا ؟ هل تشنقنى أمى ؟ إن (بدرية) نفسها تواجهها بشجاعة !! لكننى عدلت . قلت متحفظا : أليس من الجائز أن تكون هذه خطة .

حقيقة أن الموقف كان حلوا لم يخرم من كلمة مخلصة حنون لكننى خائف .

وفى يوم شديد القيظ رجعت أمى من الخارج وقت الظهر و (سميرة) برفقتها يحملان أشياء من مستلزمات الجهاز فى فترته النهائية .

ومر اليوم . وعدت وقت المساء من العمل وجلسنا نتعشى ولم تكن العروس معنا . وكانت (بدرية) تتحرك بطريقة تدل على أنها غاضبة . ولما سألت عن (سميرة) أخبرتنى أمى فى هدوء وإطراق أنها متعبة . ونظرت أمى إلى (بدرية) بجانب عينها .

كانت (سميرة) تئز فى فراشها كأنها عارية وقت الشتاء . ووجهها الزاهى فى لون القرنفل والملابس عليها ساخنة الملمس .

سألتها فى لهفة :

ـــ ماذا بك يا (سميرة) ؟

ـــ لا شىء يا أخى . برد خفيف .

ـــ هل فعلت ما يستوجب ذلك ؟

ـــ دخلت الحمام .

ونمنا وأصبحنا . ورأيت على وجه أمى وقت الصباح قساوة من خاض معركة خسر فيها كثيرا . وأطالت صلاتها أكثر من العادة . وأفطرت وحدى وخرجت .

كان شىء ثقيل الجناح موحش الظل يرفرف على كل منظر خصوصا على بيتنا . وكف كأنها مخلب تقبض على قلبى .

ولم تكن الحال قد تحسنت وقت الظهر . ولم ألق نظرة على وجه (بدرية) حين وصلت . وأخذت القضايا أوضاعا ظالمة صارخة فى

الظلم بين الأفراد الثلاثة فى البيت . وفى المساء استدعينا طبيبا :

ـــ أوه ... التهاب رئوى حاد .

ـــ خطر ؟!

ـــ ليس دائما . ماذا فعلت الفتاة ؟

ـــ أخذت حماما عقب عودتها من الحر .

ـــ اسهروا إلى جانبها .

ومن غير أن يصدر أوامر لم تذق عيوننا نوما . خيل إلى أنها تتسلل خارجة من البيت وأنها تصعق على الجهاز مع النظرة الأخيرة . وانتابنى إحساس حاد طارئ خارق فصعدت إلى السطوح . كان الدجاج يقرقر ، وفى السماء قمر صغير . وزوجان من الأرانب يسريان تحت النور . ونظرت إلى الجبل والكهوف التى يخيم الظلام على أبوابها وأرسلت دمعة ، من العين العزيزة الدمع .

وتحت ... كانت أمى تتحسس ركبتها هى فقد شعرت هى الأخرى بالتعب . أما (بدرية) فلجأت إلى الفراش لأنها كانت شبه منبوذة . شئ لا يعلل !!

وفى اليوم التالى دخلت ظهرا على (سميرة) فرأيتها تبتسم من خلال الآلام ولم يكن شئ من التحسن قد طرأ على حالها .

قلت لها بحنان :

ـــ سميرة !!

ـــ نعم .

ـــ قولى ، ولو كلمة . أى كلمة !!

ـــ اطلب .

ـــ قولى .. قولى .. إنك بخير !

ـــ حاضر !! (ولم تقل شيئا) .

وبدت الأشياء عند دخول الليل كأنها مستعدة لاستقبال حادث . ولم يكن يسمع فى الضاحية إلا صفير القطارات الممطوط . وخيل لى أن (سميرة) آخذة فى التسلل خارجة كأنها أسيرة تريد العودة إلى وطنها .

وأيقظتنى أمى بنقرة واحدة على الباب وكان أحد الديوك ساعتئذ يعلن بصياحه قرب الفجر . فرأيت على وجهها أمارات مريعة ذكرتنى بموت أبى .

فانفجرت أبكى مع أمى على القديم والجديد ... آه !!



١١

وتركت لنا ثيابا وعطرا ... ومشت . وجمعت أمى أشياءها فى حجرة وأغلقت بابها . وكان حزنها يبدو فى عينيها كأنه ذهول . وأحس أهل (العريس) بخجل كأنهم جناة فلم نعد نرى أحدا منهم . وحملت (بدرية) شئون البيت فى صمت . ووقف الزمن كأنما ليأخذ مهلة .

وجاءت (زينب) صباح يوم إلى الإدارة لتسأل عما كلفتنى به فلما رأت هيئتى أنكرتنى . ثم عرفت الحادث فانصرفت دامعة العين . ثم رأيت فى ذلك المساء (فاطمة هانم) عندنا مطرقة بجانب أمى فى هيئة تبدو الأحزان بها شيئا كريها حقا .

وسهرت أسأل ذات ليلة عن مقدار رأس المال الذى تدفع أمى عنه هذه الضرائب . أى فترة من فترات عمرها كانت رغيدة ؟ سمعت أنهم شقوا من أجل أن يكون لهم ولد ، وأنهم لجأوا إلى الطب والتنجيم ونذروا النذور وقطعوا العهود . وهذه أمى لم يفرغ قلبها من المشاغل ، كانت تخاف على

الكتاكيت من الحدأة وها هي ذي (سميرة) قد ماتت وهي عروس كأنها دجاجة خطفها ثعلب .

ولم أعد أحس بالنقمة على شيء . ليس من المروءة أن أترك مثل هذه المرأة وحدها . لقد أحرقت كفها شمعة العرس !! قالت لي يوما : إنها ستكون بزواج (سميرة) قد قطعت نصف المرحلة . ذلك حسن . الموقف لم يتغير وإن كنا قد وصلنا من الباب الآخر . فبموت (سميرة) قطعنا نصف المرحلة أيضا . مسكينة !!

وها قد مضى على موت أبي ثماني سنوات وأصبحت ابن ست وعشرين سنة . و (بدرية) في الثالثة والعشرين . والأم قد جاوزت الخمسين . وأصبحت (المثل) أمامي في ثيابها الحقيقية بلا شفوف ولا مساحيق . فصممت على أن أرسم خطة وأن أربط نفسي بها . لا أمشي بعد اليوم بطريقة الصراصير التي تتلمس طريقها في ذعر فلا تعرف البدء ولا النهاية .

وقلت لأمي ونحن نتسامر : إن حالتك الصحية تسوء . حافظي على نفسك من أجلنا فلا يجب أن تتركينا يا ماما . لا بد أن تعرضي نفسك على طبيب .

وكنت آمل أن تفتح لي الباب فأرى ما بالداخل وأن تشركني في أي شيء ، لكنها على الرغم من تأثرها بقولي لم تغير من خطتها معي . فوافقت على الذهاب للطبيب ولم تطلعني على الخطة القادمة .

وأصيبت اقتصادياتنا بضربة . فقد استهلك الجهاز قوتنا . وحذف من المعاش نصيب (سميرة) . وحرمنا نفسنا من الملذات . وكان الصاعد منا إلى السطح والنازل منه على السواء يتحسس بيديه أو بعينيه الصدع القائم

فى ركن السلم . سيطلب منا فجأة وبلا انتظار ترميم ، والصدع القديم لم يرمم بعد .

وأمى أيضا محتاجة إلى ترميم لأن الروماتزم سبب لها ورما فى ركبتيها وعند كعبيها . وهى مكلفة بالخروج فقد تعودت أن تشترى الأشياء بنفسها . ومنظر سيدة طويلة عجفاء فى ثياب سود تمشى وهى تعرج وعلى ملامحها بقايا عز وأمارة شىء يدعو إلى الرثاء .

وذهبت إلى طبيب مشهور فقرر شيئا عجيبا خضعنا له .

ـــ اخلعى أسنانك كلها يا سيدتى ..

ـــ كلها ؟! كلها ؟! كلها ؟!

ـــ هل تشعرين بأنها سليمة ؟

ـــ لا .

ـــ إذن فاخلعى أسنانك كلها .

ـــ حاضر !!

لكنها أخرت ذلك ريثما تفرغ من شىء معين .

لم يكن أحد من أهل (العريس) يأتى إلينا كما تعلم . وأكبر كل من الطرفين قدسية الموقف فلم يتكلم أحدهم فى الماديات ، فأضحى الجهاز فى بيتنا كطعام الوليمة الذى اعتذر عنه كل المدعوين . وكانت أمى تخرج وتعود وكأن على وجهها تجعيدة جديدة . أما (بدرية) فكانت تعانى بيننا موقفا حرجا فلم نكن نرضى عن تواضعها ولا كبريائها ولا طاعتها ولا عصيانها . تتهمها نظراتنا بالشماتة أو بالنفاق دائما دائما .

وفى ليلة الأربعين جاء فقيه يقرأ وعلقنا (كلوبا) على الباب من الخارج . وحشرج الفقيه وأز وقرأ عدة سور وذكر (حور العين)

فتخيلت أختى بينهن . ماذا عسى أن يكن (حور العين) إلا الطيبة والحب والهدوء والسلام ؟ وكل هؤلاء قد اجتمعن فى (سميرة) .

وفصلت هذه الليلة بين فترة من الخيال والواقعية فقد صممت أمى — على ما بدا — أن تنتهى من الموضوع . وأتكأت على ذراعى وخرجنا فى الصباح . وكان لونها كابيا وكأنما لوحته الشمس . عواملنا الداخلية تغير ملامحنا ؟؟ سبحان الله !!

وكان (رشدى) قد سكن فى المدينة فذهبت أمى إليهم . وكنت أتصفح الوجوه وأنا جالس معها فى القطار . خيل إلى أننى رأيت أثر النمو فى كل شىء كأننى غبت عن الدنيا وعدت : هذه الفتاة لم يكن لها نهدان وها هى تنظر إليهما فى حياء . كبرت ! وهذا الغلام قد حلق ذقنه وقد كنت أرى على خديه الزغب . كبر ! والكمسارى محنى الظهر لأنه طويل ولم يكن كذلك . كبر ! وبدت لى نخلة من الشباك بين نخيل جزوا جريده فتذكرت أن بلحه منذ سنوات كان فى متناول اليد . أما اليوم فلا بد من الصعود . كبر !! وأمى ... كبرت ! ملئ وجهها تجاعيد . وقد قالت لى منذ ليال : إنها لم تصنع شيئا . كأنها صاحبة رأس مال لا ينتج . وصفقت بكفيها .

أنا وهى واقفان على الطريق والناس يسيرون . لها معاش من الخزانة ولى مرتب من نفس الخزانة . تمشى علاواتى ببطء مخيف وعمرى يثب بسرعة ولا بد أننى كبرت مثل هذا الغلام وتلك البنت والكمسارى والنخلة . ذلك طبيعى لكننى أراه فى نفسى .

وودعتها عند آخر الخط ودعوت لها بالتوفيق :

— مع ألف سلامة .

وأحس بعض الواقفين بحرارة الدعوة والتفتت إلى سيدة مسنة وفى عينيها حنان. وصرفت وجهى عن الناس ومشت أمى تجر ساقيها .

وفى ذلك اليوم كنت أحسب الحسبة فى الإدارة أربع مرات أو خمس مرات . إن الحياة فى ذاتها قسوة لأنها مذعورة من الموت وإن لم نشعر بذلك فكيف إذا تسلحت بالقسوة ؟!

وعند الظهر كانت أمى تأكل بلا شهية وتشكو من الهضم وتتحسس مفاصلها وتنظر إلى الصدع فى الحائط وإلى الصورة الصغيرة لسميرة تلك التى دقتها بيدها قبل أن تموت :

ــ لماذا لا تشتكين لى يا ماما ؟ ... خففى الغطاء عن الوعاء الذى يغلى !!

قلتها فجأة وبخنق فجاءت كلماتى كأنها شكوى . عندئذ تململت فى مقعدها وقالت وهى تعود إلى تماسكها :

ــ يكفيك ما أنت فيه ... بعد مرور هذه الفترة سيصبح كل شىء طيبا . على شرط آ ...

وظننت أن ذلك متعلق بى فاستوضحتها بإلحاح فاستطردت :

ــ على شرط ألا تقلع سفينتى فى وقت مبكر ... ألا أموت .

* * *

واستيقظت فى فراشى بعد الغداء لأننى سأعود إلى العمل فى المساء وقمت من النوم والطعام فى بطنى كأنه حجر . ثم ركبت القطار وفطنت وأنا جالس حين رأيت خيالى فى زجاج الشباك أننى لم أسرح شعرى . وكانت العيون تأخذ ناصيتى المنكوشة بشىء من الفضول لكن وسامتى غطت على الفوضى .

ورأيت ظهر فتاة خارجة من الإدارة حين وصلت إليها وأدركت أنها (زينب) . هل جاءت لتسأل ؟ وأعرضت عنها وعبرت العتبة لكنني وجدت نفسي مدفوعا وراءها وجريت فى نفس الاتجاه القديم إلى (لاظوغلى) وقبل أن تعبر هى شريط السكة الحديد دق جرس الإنذار بمرور القطارات فوقفت وأدركتها .

كل شيء فى الحياة كان ذابلا فى هذه الفترة حتى (زينب) تحت أذنيها وعلى وجهها الشاحب بقعتان حمراوان كأنهما صفعتان من كف غليظة ، وشفتها السفلى متشققة بحيث خيل إلى أن من واجبى أن أنديها . وأمسكتها من زندها بلا تردد . كأننا فى آلامنا نكون أشد اندفاعا وأقل فى التحفظ . وبدا فى عينيها شبه دموع ولم تقل شيئا حتى انقضت جلبة القطار . وعبرنا وسرنا كأننا عشاق بلا مأوى وخيل إلى أن الشيء الوحيد الذى ينبغى أن يقال هو :

ـــ تعالى ... نذهب إلى أى مكان ... نصنع أى شيء ... بل كل شيء . نأكل تفاحة واحدة لأول مرة ولآخر مرة على مائدة حياتنا التى لا تحمل إلا الخبز والمخلل !!

لكنها تكلمت فقالت شيئا آخر :

ـــ فؤاد ... جئت إليك !!.. أ ...

قلت مستعجلا وبشوق :

ـــ أنا أعلم أنك جئت إلى . قولى .

ـــ إن أمى . آه ...

ـــ لا تتأوهى . اتركى هذه العادة .

ـــ أمى فى حالة إعياء شديد . تصور أنها تنزف منذ ليلتين ؟

ـــ لماذا لم ترجعى إلى ؟

ـــ ليحاول كل واحد أن يحمل هم نفسه .

ـــ كأنك لا تشعرين أن المتعبين أقرب إلى مساعدة أمثالهم ... الناقهون فى المستشفى يخدمون المرضى !

فنظرت إلى .

وكانت عيناها متعبتين لكن نفسها قوية . وعلامات كأنها من أرق الحب عند زاويتى شفتيها . وهممت مرة أخرى أن أقول لها « تعالى ... نصنع أى شىء » لكن واقع حياتنا ينصب على رءوسنا فجأة إن غفلنا عنه كأنه ماء بارد .

ـــ سأجهز لها سريرا . هكذا تفعل البواسير . هل صحتها العامة حسنة ؟

ـــ نوعا . لكن ...

ـــ ماذا ؟!

ـــ لماذا يتركنا آباؤنا للمتاعب ؟!

وسمعت من فمها لأول مرة منطق المرأة المغلوبة . وثارت فى لأول مرة نخوة الرجل القادر وقلت لها فى حماسة :

ـــ لا تقولى هذا . إن الدنيا لم تخل من الرجال .

فأطرقت هى أما أنا فتذكرت أمى وأين هى الآن . وموقفى من البيت فكفكفت بنفسى حماسة نفسى .

وتواعدنا أن نلتقى بعد يومين لتدخل أمها المستشفى . وفى الإدارة كان هرج ومرج جديدان يصدران من الموظفين فقد أعلن (فهمى) أنه سيتزوج وأن مساعى جدية تبذل لنقله إلى وظيفة أكثر احتراما . وعما

قليل سيترك وظيفة (٥ × ٦ و ٧ × ٨) إهدار للعقل وخنق لنور المعرفة كما يقول . وجعلوا يصخبون : « يا بختك يا عم » .

أما أنا فكنت مشغولا عنهم بشغلى . وكثيرا ما نادونى فلم أرد ، فتركونى فى معزلى فى سكون .

وقررت فى المساء أن أدخل على أمى فى عزلتها ولكنها ردتنى بمهارة ولطف ونحتنى باسم الحنان على صميم المشكلة قائلة إنها لم تصل فيها إلى مرحلة حاسمة وقد يكون من المحزن لى أن أعرف تفاصيلها .

وفى اليوم التالى رأيتنى فى البيت وحدى . وكانت أمى و (بلدية) فى الخارج لبعض الشئون . وطفت بالحديقة وصعدت إلى السطح وجلست فى كل مكان حتى دورة المياه . وتوقفت عند الصدع فى ركن السلم ووضعت فيه أربع أصابع وجررت نفسى حتى وقفت فى الصالة كأننى لا أجد مكانا أذهب إليه . ونظرت إلى الحجرة المقفلة على حاجات (سميرة) وكان الظلام مطلا من خصاص بابها . وأحسست أن شيئا فى داخلها ينادينى وكأننى سألقى العروس فيها مطوية على كرسى من الكراسى . لكن المفتاح كان مع أمى . إحساسات لا تعلل كالتى حكوها عن القصور الخرافية ذات السبع حجرات والسبعة أبواب وكل شىء فيها مكون من سبعة ، وكانت الحجرة السابعة محظورة الفتح دائما . والبطل الخرافى كان يفتحها دائما لتبدأ المتاعب ...

وتبسمت . وذهبت إلى حجرتى وخلعت مفتاحها . وبعد علاج قصير انفتح الباب عن الظلام والوحشة . وأشعلت مصباح النور فلم يشتعل لأن أسلاكه تالفة . وخفت الظلمة حين ألفتها فرأيت كل شىء مكدسا . واتجهت نحو صوان الملابس فألقيت نظرة على ما فيه فإذا

الفساتين معلقة على الشماعات تفوح منها رائحة (سميرة) فرجعت تاركا آثار أقدامى على الأرض وجريت نحو الهواء .

وتلقانى الكلب فى الحديقة بعين آذتها ذبابة فسالت دموعها . فربت على ظهره وفتحت الصنبور لأروى النبات الحى .

إن أمى معذورة . إن (سميرة) مشت فى وقت غير مناسب .. وأدركت بعدئذ أن الطرفين مختلفان على الجهاز . ولكى يتزوج العريس ينبغى أن يأخذ نقودا . ولكى لا نخسر نحن ينبغى أن نتخلص من الجهاز ونحن مدينون لكل من يجهزون العرايس وهذه المشكلة .

وفى الوقت الذى كنا فيه نودع (فهمى) ونبادله القبلات داعين له برحلة طيبة فى شهر العسل ـــ كان (عم سيد) يقول لى بنبرة هامسة ووجهه يحمل سرا :

ـــ فؤاد افندى ... كلم .

وكانت (زينب) بانتظارى . وكان كلانا يحس أن الحياة فارغة أو متوقفة بالنسبة إليه . وشكت لى أول ما قابلتنى أن أمها تلاقى فى المستشفى إهمالا . فاستمهلتها حتى المساء ثم التقينا هناك . وبذلت ما فى استطاعتى لأوصى عليها . وظلت المريضة تثرثر بذكرياتها عن علاقتها بأمى وتلقى إلى بنظرات ملؤها الأمل ولعل فيها حبا . أما الحياة فى بيتنا فكانت على النحو الذى تعلمه غير أنى كنت قد وصلت إلى حالة مشبعة بالملل وأريد أن أمد يدى فأغير أى شىء .

ولما خرجنا أنا وزينب كان الليل قد هبط منذ ساعة . واقترب كل منا من الآخر ونحن نعبر حديقة المستشفى فى طريقنا إلى الباب . وبدأت رائحة الزهر والندى والعشب والليل تشغل مكان روائح العقاقير .

وهتفت زينب باسمي ويدها تلتمس طريقها إلى يدى . فلما تلاقت أكفنا تطابقت كما تفعل الكماشة . ودقت ساعة البرج فى هذه اللحظة فكأنما دقت مائة !! لا أدرى !! شعرت أننى سكران وأن شيئا ضخما فى الحياة لا يزال ينقصنى .

وأصررت على أن أوصلها إلى بيتها . ولم أكلمها ونحن فى الترام . وكانت نظراتها المشفوعة دائما بابتسام تعدنى . حتى إذا ما وصلنا إلى الحارة بدأت فرصة النكوص لكننى تشجعت حين أغرتنى بفنجال من الشاى :

ـــ ألا تريد أن تشرب « شاينا » ؟ من المحتمل أن يكون أخى قد وصل !!

وكنت فى قرارة نفسى ثائرا على الدنيا كلها . أرى السعادة فى أن أختطف (زينب) وأطير بها إلى أى مكان . وفتح لنا أخوها الصغير وكان وحده فى المسكن كأنه جن . وطالبها بالعشاء وتركنا ونزل ليشترى حلاوة وجبنا وخبزا من الفرن الجديد هنالك بعيدا عن الناصية !! ولما استأذنتنى بلهجة لينة أن تذهب إلى الحجرة الأخرى لتخلع ثيابها وجدتنى ـــ وقد فرحت بنفسى بعدئذ ـــ أمسك معصمها وأقول لها بلهجة ذليلة :

ـــ لا تتركينى !!

فتأوهت وأقبلت على وقد بدا التسليم على أجفانها المكسورة :

ـــ أنا ؟! ... لا أريد أن أتركك أبدا !! ...

وتهاوينا على الكنبة . وغابت الصور التى كانت تزعجنى فلم أتذكر أحدا حتى ولا أمى ورأيت (زينب) على ذراعى كوسادة من الريش

. أستطيع أن أثنيها فى أى اتجاه كما يشرب الطائر الخائف حتى أيقظنا جرس الباب . وحين كان الجنى الصغير ذو العينين القلقتين يتناول عشاءه على مرأى منا كنا نهمس بالحديث قالت :

ـــ هل سببت لك متاعب ؟ إن جرس العفريت جاء فى الوقت المناسب ... ما لنا كنا هكذا ؟! سكارى ... أنا شخصيا كنت سعيدة . وأنت ؟

فقلت شاردا :

ـــ لا أعلم كنت فى حلم لا أكثر ولا أقل !

فقالت ضاحكة :

ـــ صح النوم !!

وأمسكت نفسى أن أقول لها : تعالى نهرب إلى أرض ليس فيها سوانا . بعيدا عن كل الناس . لكننى تذكرت أن فى (حلوان) امرأتين تنتظران عودتى بلا عشاء . وأن كلا منهما قد أوت إلى فراشها بأحلام لم تتحقق بعد . فتنهدت وتنهدت بعدى (زينب) .



١٢

وأعلنت أمى بعد ذلك بأسبوع أن الأزمة قد انتهت تماما ... فسألت بسذاجة وفرحة كانتا سببا فى أن نظرت إلى فى شىء من اللوم :

ـــ انتهت ؟! .. يا سلام !!... ما الذى حدث يا ماما ؟

ـــ كل خير . سنوات المتاعب بدأت تغور . منذ موت أبيك وأنا أعانى قلقا عليكم . ألست معى ؟ ... من غير شك !! وكان موت (سميرة) حادثا غير مريح . رحمها الله . ارتاحت من الدنيا .. لو أنها لم تترك جهازا ما تفاقمت المشكلة . أنا مديونة لكل الناس يا فؤاد وكانوا يريدون أن يأخذوا مهرهم . تصور !! ... وأبقى بعد ذلك أدفع أقساطا أو أرد ما اشتريه بثمن يخرب البيوت . ونحن لا نحتمل هزة (ثم صمتت) .. لا يزال أمامنا شوط طويل . البيت يريد ترميم وأمك تريد ترميما .. وأنت ؟! أنت تريد أن تتزوج . وأغمضت عينيها كأنها تحلم وأطرقت أنا نحو الأرض حتى لا ترى ما فى عينى . وظلت ـــ وعلى وجهها شبه دعابة ـــ متربصة بى تريد أن ترى أثر قولها فى ملامحى فلما لم أنظر إليها رفعت جبينى بإصبعين وهى تبتسم ، فابتسمت لها . وقالت :

ـــ لعلك تقول الآن : مالى ومال هذه المتاعب ؟

ـــ لا .

ـــ كل شيء سيسير سيرا حسنا بإذن الله . بدأت أتفاءل . أحلامى تبشر بأن سنوات الهموم بدأت تغور . لا تحزن . فقد أخذت أرضنا تخضر . عاونى ولا تقلق . بعض الناس يغرقون بالقرب من الشاطئ وكثيرا ما يجعلون آخر شوط فى العمل أسوأ شوط فيه . أتفهمنى يا بنى ؟!

ـــ نعم أفهم .

ـــ سيتزوج رشدى من بدرية . وستلبس العروسة ملابس العروسة . ليس هناك مفر . غير أنى أدعو الله أن تتخلى عن رعونتها حتى لا يضجر منها لأنها (شعنونة) .

ـــ زوديها بدعائك .

فابتسمت . ومدت يدها فتحسست شعرى . « عندما ترتاح أمى من متاعب الدنيا . ويخف لمثها تكون أطيب من النسيم . ظروفنا تغير أخلاقنا » .

قلت ذلك فى نفسى وأمنت عليه وتذكرت أحد زملائى حين يكون أرعن التصرفات سليط اللسان عندما يخلو جيبه من السجاير ... تمام تمام . نقص مطلب قد يغير اتجاهنا الفكرى . ثم شهقت كمن سقط فى الماء وسألت نفسى :

ـــ إذن فما الذى يحدث لإنسان ينقصه الحب ؟؟

ووقفت عند هذه القضية وتذكرت أننى مسكين يخز الحرمان فى إحساسى كأنه مبرد يأكل شيئا هشا . أنسى نفسى على محطة السكة الحديد

أو غيرها بالثلث ساعة لأراقب أرداف النساء حين تبتلع الثوب الخفيف من هبة الهواء . أو أرسل نظرتى متسللة من فتحة الصدر لأرى الخندق الأبيض . وخيالات الجنس مشوبة بالخزعبلات دائما .

تذكرت (زينب) جيدا وأمى تحكى عن كل شيء وتعلن انتهاء المشكلة بوجه زالت عنه التجعدات كأنه دهن بالحيوية . حتى نظرتها كانت أكثر تألقا ووجهها أعمق سعادة . وكدت أبوح لها بمكنونى . فقد تخيلت أن أى شيء فى الدنيا لا يستطيع إغضابها الآن ، لكننى أمسكت من باب الاحتياط .

واختفت صورة (سميرة) من على الحيطان . ودخلت إلى علبة فى جريدة قديمة فى ركن من الدولاب فى الحجرة التى فوق السطوح والتى تحتوى على ذكريات أبى .

أما بدرية فقد بدت وارثا بغيضا لأنها كانت متهمة فى حياة الموروث . وكرهتها فى نفسى حتى كأننى ضبطها تخلع خاتم الخطبة من يد أختها المسجاة لتلبسه فى صمت !! ربما كان ذلك لأننى كنت أحب الصغيرة ... فأنا أحب الهدوء وسكون الطبع ولعل (زينب) قد استأثرت بانتباهى لأنها تبدو دائما كالمحتاجة إلى ، أنا الضعيف لكننى أحب التى تستند على ذراعى .

وانغسل التراب عن البيت وانفتحت الحجرات فلم يبق هناك شيء مغلق . وكانت بدرية فى الصباح خادمة مخلصة وبعد الظهر عروسا نظيفة . قلت فى نفسى : عجيبة . فى هذه الفتاة مواهب . إنها تحكم كفها تماما على الشبكة ولن يفلت منها الصيد . ودعى العريس للعشاء عندنا لأول مرة بعد الحادث المؤسف .

ورأيت أمى تذبح دجاجا وتطبخ كشكا كما كانت تفعل أيام زمان !

وجلست بدرية على المائدة إلى جانب رشدى . ولم أطق المنظر أول الأمر . ثم أطقته كما تألف الشكل المشوه مع مرور الوقت . وكانت أمى تبدو سعيدة . أما رشدى فمن حسن حظ بدرية أنه من ناس يأكلون أى شيء ، ويلبسون أى شيء ، ويرقدون فى أى مكان وإن أبدى شيئا من المقاومة .

ومن الغريب أنه أصبح يزور بيتنا أكثر مما كان يزوره قديما . أيام العروس الجميلة الواقفة فى صف « بنات الحور » . وكتمت أمى سعادة وإعجابا . واستنبطت أنا أن القدرة على التملك فن يوهب ، سره غامض ولا تكشفه إلا الظروف .

على أن هناك شيئا قد تعجب منه حين تحسه منى . هو أن اقترابى من أمى كان يزداد كلما هبت الريح رخاء على الأسرة . وكلما زاد قربى من أمى زاد بالتالى بعدى عن (زينب) . فأنا لا أستطيع أن أرتبط بها حتى ولو بكلمة ولا أجرؤ على مفاتحة أمى فى أمر زواجى فى الفترة التى رقدت فيها على بيتنا تلك السحابة السوداء . أما إذا كانت الأمور على غير ما يرام فى بيتنا فقد كنت أدنو من زينب دنو الذين يحملون معهم عذرا واضحا فى عدم الارتباط بامرأة .

لذلك كنت فاترا إلى حد ما حين طلبتنى (زينب) فى الإدارة وخلقت عذرا لطلبى يومئذ :

— منذ تلاقينا . فى الليلة المعهودة لم أسمع عنك خبرا . لقد انصرفت سعيدا ليلتئذ أليس كذلك ؟ فهل جد جديد ؟ ..

— لم يجد جديد .

ـــ كثير من الأشياء لا يعطى أثرا عكسيا إلا بعد وقوعه بمدة . يعنى بعدما يكشف الناس له دوافع جديدة ...

فقلت بغلظة :

ـــ لست فاهما .

ـــ ليس ذلك ضروريا . الضرورى أن أعلم ما إذا كنت سعيدا ؟

ـــ الحمد لله !!

ـــ لا يبدو ذلك فى عينيك . آه ...

ـــ عدنا للتأوه ؟!

ـــ كل شىء فى حياتى يبعث على البكاء . إن الموضوع الذى حدثتك عنه بدأ يتجدد .

قلت متجاهلا بجهامة وبلادة :

ـــ أى موضوع ؟

فنظرت فى تشكك وقالت بأسف :

ـــ نسيت ؟! ... أنت من الذين ينسون ما يعجبهم ؟! إذن ... فهو ... موضوع البقال .

وكنا عبرنا الشريط فى نفس الاتجاه . نحو ميدان (لاظوغلى) وقطار ذاهب إلى (حلوان) يطلق صفيرا طويل النفس مستعجلا فى سيره . وفى قلبى فى هذه اللحظة فرحة انتصار بما ظفرنا به . وميل إلى التريث حتى بدا لى أن هذه الفتاة ليست (فرصة) وستلد الأمهات وسيظللن قلقات على زواج بناتهن كما فعلت أمى وكما تفعل أمها وكما ستفعل زوجتى . لا داعى للعجلة . إنها تضيق على الخناق . حقيقة لقد تقابلنا ... لكن ... أنا لا أملك الآن خطة واضحة .

ووجدتنى أضحك . فنظرت إلى باستغراب وشحوب لأنها لم تعهدنى كذلك :

ــ هل هناك ما يدعو إلى الضحك ؟ أذلك لأنى أفضلك على رجل آخر ؟ الفرق بينى وبينك هو أن أحدنا أخذ الأمر جدا والثانى أخذه هزلا . هذه هى المسألة .

وحاولت أن أفسر لها موقفى ولكن ذلك لم يكن ناجحا . لأن الفتاة حين تعطى يصير إحساسها أكثر رهافة : خصوصا عندما تكتشف أن هذا الرجل لم يكن يستحق .

وافترقنا .

وبدا لى أن حرمانى موعود وموقوت فأصبحت أحتمله . وخطت سنى إلى السابعة والعشرين . وأسرعت أمى فى إعداد كل شىء . ولبس رشدى سحنة المحبين فقد لعبت به بدرية . صعدت مرة إلى السطح فرأيته معها عند حظيرة الدجاج يقدم بيديه فتات الخبز للأرانب : ورأيته مرة يسقيها وهى فى الفراش .

وسعدت أمى (بنظام الحكم) وأيقنت أنها ستموت مرتاحة البال .

ولما عاد (فهمى) زميلنا فى المكتب من شهر العسل كنت ضمن الذين لا يناصرون قضية الزواج الباكر . كان شاحبا كأنه منزوف يقذفه أكبر الموظفين سنا بالكلمة تلو الكلمة كأنه يرميه بالمقلاع .

ونحن نحس بشماتة خفية وبالتالى بنصر مبهم حين نرى إخفاق الذين يسبقوننا إلى شىء كنا نتمناه ولم نحصل عليه ، لذلك شاركت بلسانى ضد (فهمى) حتى استرعى ذلك انتباه من حولى .

على أن مقامه عندنا لم يطل وصحته لم تتقدم . وانتقل إلى الصعيد ليعيش فى الجو الجاف . وغابت عنا أخباره وحل محله موظف آخر .

وهكذا بدأت الأشياء تتغير ...

وأجمل ما فى تغيرها أن بدرية زفت إلى زوجها فى إجازة نصف السنة . وقد شعرت — أنا وأمى — أننا اثنان فقط عند عودتنا من بيت العروس . وانفجرت أمى باكية وهى تعبر الصالة ، أما أنا فقد دق قلبى لأننى تذكرت — وعينى إلى الصدع القائم فى ركن السلم — أنه كان فى بيتنا منذ عام واحد فتاتان ناضجتان ذهبت كل واحدة منهما إلى موضع . وأن هناك مطالب لا تزال قائمة ... كلها ترميم وإصلاح .

وأوينا إلى فراشنا متعبين كل فى حجرة يفصل بيننا جدار . ونام البيت وكأنه لا يتنفس . حتى الكلب لم ينبح فى هذه الليلة . وكنت أفكر فى غير ما تفكر فيه أمى . كانت هى مشغولة بما يجرى تحت المصباح الأحمر فى بيت بنتها ، أما أنا فكنت مشغولا بمسألة بدأت عويصة :

— « ما الذى أحزن عليه لو أننى خرجت من هذه الحياة . وما الذى تحزن عليه أمى لو خرجت منها ؟! » .

ولم أجد سوى أننى لم أتزوج ... فانتقل فكرى إلى أشياء أخرى فى مقدمتها زينب :

— أليس من الجائز أن يكون مقسوما لى ولها أن تبدأ حياتنا بليلة مثل هذه التى بدأت بها حياة رشدى وبدرية ... آه ... إن عالم المرأة شىء خطير . ترى ما تفاصيله ؟! » .

وتذكرت شقا كبيرا فاغرا فمه يقوم فى ركن السلم ... عندنا فى البيت ... وأمى المتهدمة ذات الركب المتورمة والمفاصل الملتهبة والأسنان التى أمرت بخلعها :

— « يغذوننا بلبنهم أول العمر ، يطعموننا صحتهم فى أواسطه وعندما

يضعفون .. ماذا ؟! .. ربما اعتبرناهم أعباء !! » .

واستغرقت فى النوم . وفى الصباح كانت أمى تصلى . وبدا على وجهها أنها لم تنم . وكان اليوم يوم جمعة ، فانتظرنا حتى الضحى وركبنا إلى العاصمة . وكنت مشوقا إلى أن أرى وجه اثنين تركناهم بعد منتصف الليل البارحة فقط وخيل إلى أننى حين ألقاهم سألقى فيهم ناسا لم أرهم من قبل ...

لم يكونا قد نهضا بعد من الفراش حين وصلنا فى الساعة العاشرة ... وجلسنا حيث تجلس أم رشدى حين خرج علينا العروسان .

ولم أحاول أن أفحص شيئا طوال خمسة عشر يوما منذ تلك اللحظة . كل ما فى الأمر أن أمى كانت دائمة الحزن وأنها كانت تفضل أن تذهب وحدها دون أن تستصحبنى معها . ورجعت إلى عادتى التى عودتها لى ، ألا أكشف الغطاء عن إناء مادامت قد حجبته عنى . حتى دخلت عليها ذات مساء فألفيتها تسرح شعرها بعد الاستحمام على وجهها ابتسامة بيضاء وثوبها الداكن قصير الكم تبدو منه ذراعها البيضاء . وهممت أن أسألها عن سر السعادة الطارئة ، لكنها قالت بإيجاز وهى تتناول المنديل لتعصب رأسها :

ـــ منذ ليلة أمس وكل شىء فى بيت بدرية على ما يرام .

ونظرت نحو حجرتها بخجل وشرعت تربط المنديل بإصبعين . فهززت رأسى مؤمنا وأنا أقول فى نفسى : « أم البنات ، حبلى حتى الممات » هكذا قالت الأمهات من قديم ..

غير أنى نهضت وفى نفسى سؤال عن العريس ظل عالقا إلى أمد طويل :

ـــ « هل كان رشدى شابا مستقيما قبل الزواج ؟ أعتقد ذلك . طيب ... وأنا ؟! » .



١٣

وتغيرت أمى كثيرا بعد زواج بدرية . صرت أشعر معها وكأننا حبيبان . أصبحت أكثر رقة وأوفر حبا وغيرة مما كانت من قبل . وأجمل ما فى حياتنا الآن ليالى سمرنا . فقد استعدت كثيرا من خصال الطفولة وأصبح يسعدها أننى عدت طفلا . لا يسعد الأم أكثر من تعلق ابنها بها ، خصوصا إذا عاشا وجها لوجه ...

كانت غرفنا متجاورة وكنا نتناول العشاء ــ غالبا ــ فى غرفتها وعلى الكنبة المتاخمة لفراشها تجلس هى وأنام ورأسى على فخذها . وعينى إلى وجهها وهى مطرقة تحكى . وكنت أتخيل أن ابتسامتها تسقط على وجهى كأوراق الورد . وهى دائما تعبث بشعرى . وتثير من ذكريات طفولتها وحبها وزواجها ما رفع الكلفة بيننا . وكنت أنسلخ عن حديثها برهة لأسأل نفسى : لماذا لم تكن أمى فيما مضى لطيفة معى إلى هذا الحد ؟! وأعود فأندمج فى التيار . ويحملنا الحديث من التسلية والترفيه إلى الجد المرير أحيانا فنتكلم عن المعيشة وتكاليفها وعن مستقبل مرتبى

وكيف يتسنى لى أن أعيش به مع زوجة وأولاد . وتفترض أمى وهى تحدق فى وجهى جيدا أننى رزقت بزوجة متلاف مفتوحة الكف كثيرة الذرية فماذا يكون حالى ؟

ـــ كل فم وله رزق يا ماما فلا تزعجى نفسك .

ـــ لو أن هذا البيت كان لك وحدك لخفف المتاعب . إن أختك شريكة فيه وهى فتاة طماعة . لكن ...

ويتوقف الحديث . وأقوم فأجهز لها الدواء الذى تأخذه قبل النوم وأقف حتى ترقد فى فراشها . فأحكم عليها الغطاء والنوافذ إذا كان الوقت شتاء وأبعد المدفأة عن طريقها إلى الباب ثم أقبل يدها أو جبينها وأطفئ النور فى مخدعها وأذهب إلى حجرتى .

ونتناول الطعام فى الصباح معا ونشرب القهوة . ويخيل إلى مع مرور الزمن استتباب الأمر واتحاد النغمة فى وجودنا أننا كنا هكذا منذ (آدم) وأنها ستظل هكذا حتى القيامة .

ويدخل الشهر فآخذ نفقتى الشخصية كطبعى منذ أحد عشر عاما ، وأعطيها الباقى . وتصرف هى معاشها ثم تتولى دفع الديون وإطعام الأسرة .

وفى ليلة من ليالى الشتاء طال سمرنا . ونبح الكلب فخرجت أنظر فلم أجد شيئا وحين عدت مسحت الطمأنينة معنى القلق من عينى أمى . وكانت تعد على أصابعها مرات الاستغفار التى استغرقت فيها بعد ما ذهبت أجوس خلال البيت . فلما اضطجعت إلى جوارها ثانيا فى السرير ربتت على كتفى تدعونى أن أذهب إلى النوم وتدعو لى .

ـــ بدرى يا ماما .

ـــ بدرى من عمرك . اذهب ونم . فى المستقبل ستأوى إلى فراشك باكرا دائما . وباكرا أكثر من اللزوم .

ولم أفهم :

ـــ لماذا يا ماما ؟

ـــ عندما يكون فى مخادع الأبناء نساء لا يطيلون السهر مع أمهاتهم !!

قلت مهونا :

ـــ أوه ... لا تفكرى فى هذا . لا يزال أمامنا شوط طويل .

ـــ أريد أن أعيش حتى أرى زوجتك . ثق أنه لن يحزننى ذلك ولن أدافع إلا عن حقى المشروع فى قلب الابن . لن أحاول أن أستأثر بحق غيرى أبدا .

وتكلمت أمى بحرارة كأننى سأزف بعد أيام . فعزوت هذا إلى قلق ما ، وقبلتها فى جبينها وتنهدت وأنا أقفل عليها الباب .

إن فكرة أن نموت ونحن لا نملك شيئا فكرة مخيفة . إحدى صورها كانت تناوش قلب أمى فى وحدتها وأحلامها ، حين كانت تتخيل أن امرأة ستستأثر بى . وقد يدخل عليها الموت فى الحجرة المظلمة ذات ليلة وأنا أناغى فى حجرتى امرأة أخرى . وأظن أنه لو كان لها ابن أو اثنان غيرى يعيشون معها فى البيت المحتاج الآن إلى ترميم لتغير الموقف .

كنا نأخذ أنفاسنا بارتياح نوعى ، ولو أننا كنا مثقلين بالديون فى سبيل الجهاز ، كنا كالجائع المرح يسد رمقه ويغنى . نأخذ من الحديقة خضرا وفاكهة ونشترى من السوق خبزا ولحما . أشبه ما نكون بالغنى الذى لم تفن بعد ملابس عزه . وزمام نفسى وقلبى فى يد أمى وأخبار زينب

منقطعة عنى . وأخبار أمها منقطعة عن أمى . والحياة كأنها حلم . والإحساس كأنه بداية سكر !! ..

ونعمنا بهذه الفترة عاما استيقظنا بعده على طرقة :

ـــ من ؟

ـــ خطاب مسجل .

ـــ من الذى أرسله ؟

ـــ زيد ابن عبيد أو فلان بن علان صاحب البيت الذى يقع بابه فى الشارع الموازى لشارعنا ويستند ظهر بيته إلى ظهر بيتنا ، يخبرنا أو ينذرنا أنه سيهدم بيته ليبنيه عمارة كبيرة ، وعلينا أن نتخذ الاحتياطات لبيتنا حتى لا ندعى عليه فى المستقبل بشىء .

وأسندت أمى ذقنها على قبضة يدها ثم رفعتها وعضت إصبعها السبابة :

ـــ تفسر المنام !!

ـــ أى منام ؟

ـــ رأيتنى جالسة فى الليل وراء ستارة فيها خرق واحد أخيط عليه رقعة . وكنت كلما سددت الخرق بدا على مقربة منه خرق جديد والإبرة فى يدى وعينى متعبة ...

ـــ لا تنزعجى . تمشى كما تمشى . لا ينبغى أن نموت !!

فنظرت إلى فى رثاء وكأنها تتوجس شرا . وفى هذه الليلة جهزت لى عشاء سخيا وجلست تطعمنى بحرص وإصرار كأننى مسافر وهى خائفة على من الجوع . وكنت أحدثها طويلا وهى شاردة حتى بدوت أكثر ثرثرة وبدت أكثر صمتا .

ولم تجد الاحتياطات التى اتخذناها بالنسبة إلى البيت . فقد تفاقم الصدع . وألفينا نفسنا مضطرين إلى أن نبيع أو نهدم أو نبنى أو نرمم . وأغلقت الأبواب فى وجه أمى خصوصا لأنها كانت قد استهلكت قواها ومدخرها فى تجهيز بدرية فرأيت حتما أن أعرض خدماتى لأنقذ الموقف .

ـــ نستدين بفائدة وعلى أقساط يا ماما . إن أمكن .

ـــ ممن يا بنى ؟

ـــ من الذين يقرضون الناس .

ـــ حسن ليت ذلك ممكن .

قلت بحماسة الجندى الذى حجز عن القتال وهو فى الميدان :

ـــ اتركينى إذن .

ـــ تركتك . بدأ كل منا يكبر . أنت تشب وأنا أشيخ .

* * *

قلت «لعم السيد» فى الصباح التالى وأنا فى الإدارة : رأيتك تتوسط كثيرا فى تفريج ضائقة الموظفين يا عم سيد وهأنذا جاء دورى .

فضحك الرجل بحنان من يعرف مرارة الدواء واحتياج المريض فى وقت واحد ، وأبدى استعداده للخدمة . ولما عرضت الشروط على أمى ظهر ذلك اليوم وافقت موافقة المضطرين والقلق من المستقبل يبدو على حركاتها .

وقادنى عم سيد مساء اليوم التالى إلى الجيزة . إلى منطقة نائية تتفرق فيها المساكن تفرقا غير ملموم على أرض لا تزال عليها آثار الزراعة . وفى مسكن لم تلاصقه المبانى بعد ، جديد صغير ذى طبقة واحدة تقابلنا مع من دعاها عم سيد ونحن فى الطريق : بالست جليلة .

كان كل منا يفحص الآخر بنظرات طويلة أنا وهي ... ودعت عم سيد إلى الداخل كأنما لتتأكد منه أن (هذا الشاب) لن يسبب لها متاعب . وأن عم سيد مسئول أن يأخذ القسط أول كل شهر من مرتبي ليوصله إليها .

وسمعت أن لها في كل مصلحة سمسارا وأنها لذلك قلما تلجأ إلى القضاء . وأخذنا منها مبلغا يعتبر كبيرا بالنسبة لحالنا . وأخذنا نرمم البيت ولقينا في سبيل ذلك عناء لا يوصف .

وأحسست بحسرة تفوق حسرة أمي حين أشار علينا أحد العمال بلهجة الناصحين أن نهدمه أو أن (نسقيه) لأحد المشترين بواسطة سمسار ماهر . لأن بناءه كقطعة السكر المبلولة .

وضحك العامل عن أسنان صبغها الشاى فكأنما أغمد في قلبي خنجرا صدئا .

كانت هذه القضية بالنسبة إلى لا تعني شيئا ، فماذا لو تخلصنا من غير الصالح في حياتنا كلها ؟! لكنه كان بالنسبة إلى أمي ذكريات ضخمة ... ترى ملامح حياتها في كل ركن فيه . وأكدت لى ذات مرة أنها تسمع على سطحه وقع خطوات أبي . ولم يكن هذا يعادل أنه يؤوينا من التشريد .

لكن ذلك عنى أننا غرقنا في الديون . رأسنا في الهواء الطلق وجسمنا كله مغمور . وكثر تردد بدرية على بيتنا وكانت تفضل أن تبيت عند أمها بعض الليالى ، لأن معها طفلة سقيمة كثيرة الأمراض . وبدأت أمي تعيد تاريخ الحنان من أوله لأن « أعز من الولد ولد الولد » . وخرجت مسائلي أنا من بؤرة الشعور فابتعدت نحو الحوافى .

وسألت نفسى في يوم من الأيام . متى ستقلع هذه الفتاة من أرضنا ؟

إنها تجدد جذرا كلما جف جذر . وتتربص بزرعتنا كما تتربص الجرادة . بنتها تصرصر فى الحجرة الأخرى طول الليل وتبكى بحرقة كأنها سلبت شيئا . وقد يجيء رشدى ليأخذ زوجته فيتأخرون فى السهر فيفضلون أن يبيتوا حتى الصباح . وأمى تبذل من الحنان فائضا أنا محتاج إليه . لكننى لا أستطيع أن أحسنها . وفى كل أول شهر تنهال الاستقطاعات على مرتبى بشكل جعلنى أحس كأننى أطعم قوى مجهولة . فأنا رجل قليل النفقات أو معدومها إذا كان ذلك ممكنا . وأمى تحتال بشتى الوسائل لتشترى الدواء . لأنها بدونه ستتوقف كما تتوقف الآلة ، حتى فترة الحذر وبداية السكر ، حرمنا منها فلم نظل أكثر من عام . بعده بدأ جارنا يبنى والست بدرية تلد . أما أنا وأمى فليس فى حياة أحدنا لا بناء ولا ولادة !!

وأصبت ثانيا بطوفة من الضجر والملل وعاودنى الشعور بالحرمان يحز فى إحساسى كأنه المبرد . وعادت زينب إلى أحلامى وفكرت فى أن أذهب إليها ... وتذكرت وأنا فى الطريق الست جليلة . المرأة الجميلة فى خريف العمر . وجعلت أوازن بينها وبين الفتاة التى استعدت مرارا كثيرة لأن تهبنى . أين هى الآن ؟ كنت أعتقد أنها ليست فرصة لكن الحوادث تنخر الآن فى عقيدتى .

ومن خلال الجمع الخطير فى ميدان السيدة رأيت ذات يوم ظهر فتاة تلبس السواد إلى جانب رجل يبدو كأنه برميل . طربوشه إلى الوراء يتأرجح زره . وبطنه إلى الأمام وظهره مقوس . وافترضت أنهما هما . زينب وزوجها . لكن العود نحيف والشعر أطول والقامة أكثر امتدادا . كانت قصيرة مكتنزة فيما قبل مثل الست جليلة أما هذه فليست كذلك .

وحثثت خطاى حتى أدركتهما فإذا بى أرى وجه زينب حافظا ملامحه فاقدا تعبيره خاليا من المساحيق لأنه حزين .

وحملقت فيها فأهدت إلى نظرة رادعة وزوجها إلى جانبها يمشى كالدجاجة البياضة وجهه محتقن غليظ خشن مفلفل . ولم أكلمها ولم أبتعد عنها ولعل ذلك حملها على أن تلقى إلى ببعض أخبارها لأنصرف فسمعتها تقول لزوجها :

ـــ هذه عيادة الطبيب الذى عالج ماما رحمها الله ... إنه بارع يا حاج.

فتكلم وكأن فى فمه لقمة :

ـــ آجال ... أعمار !!

وانفتح باب الحديث بينهما :

ـــ لو أنها عاشت قليلا لأدركت خطبة أخى الكبير يا حاج ...

ـــ أعمال آجال ...

ـــ والغريب فى الأمر أن أخى الصغير انصلح حاله بعد موت أمه ... (ومصمصت بشفتها) ناس يفسدهم الحنان ..

ونظرت نظرة جانبية .

واستطرد زوجها وكأن فمه محشو بشيء :

ـــ أهوال ... أحوال !!

قالت وعلى فمها خيال ابتسامة :

ـــ أهوال صدقت يا حاج . لا فائدة . النسيان أحسن .

ثم انحرفا إلى أحد الشوارع فتراجعت إلى الميدان وهناك وقفت تحت عمود الساعة أسألها فى حنق صامت عن قيمة الزمن هذا الذى تحسبه آناء الليل وأطراف النهار ... حتى ولو بالنسبة إلى !!

* * *

وغاب عم سيد عن الإدارة أول الشهر التالى لأنه كان مريضا . فوجدت نفسى بلا مراوغة أحمل المبلغ المعهود وأذهب به إلى الست جليلة . كان الوقت ليلا والحى غير مضاء . وفى الأرض حفر بعضها رطب وبعضها جاف وحين طرقت الباب فتحت لى صبية فى السابعة من عمرها بديعة التقسيم وفسحت لى سبيل الدخول حين سألتها عن أمها ، وسارت أمامى وهى تعرج .

وجلست على كنبة بعد المدخل أمامها أرض مكشوفة ولم تلبث الست جليلة أن جاءت من الداخل .

لم تكن كريهة الوجه ولا سيئة الطباع كما يتبادر إلى الذهن عن امرأة تقرض بالربا . بل كان كل شىء فيها هادئا متريثا حذرا كأنها تخاف أن تخطئ . وجهها المستدير كأنه رسم بالبرجل وفى عينيها وميض قلما ينطفئ .

جاءت تمشى ببطء وسلمت ببطء وهى تبتسم ثم جلست على الكنبة على بعد منى ـــ ببطء شديد . وذراعاها متربعان على صدرها ونظراتها إلى قدمها نحو الأرض . وقدمت إليها المبلغ فأخذته بطريقة لا مبالاة فيها ثم قامت إلى الداخل لتحضر الكمبيالة ، فأتاحت لى فرصة أن أتفحصها وهى مدبرة . عودها قصير لين مفصل وعجيزتها تميل إلى الامتلاء وضفيرتان من شعرها كانتا مستقرتين وسط ظهرها .

واستأذنت بعد أن أخذت الكمبيالة لكنها سألتنى بلطف أن أبقى حتى أشرب القهوة وكان طبيعيا أن أعتذر وأشكرها .

وجعلت أسأل نفسى وأنا راجع لماذا لا يبدو شىء من القسوة على ملامحها ؟ إن بعض الرذائل يستلزم بعضا آخر منها ، وحتى الحِرَف

المشروعة تعطى أصحابها طابعا معينا ، فلماذا لا تبدو على وجهها القسوة ؟!

ولما وصلت إلى الشارع غمرنى النور فنسيت أمرها وتذكرت حالنا فى البيت :

باتت أمى تبكى بدموع حرى طول الليل : لأن بنت بنتها مريضة ورشدى رجل وديع يقيم حيث تقيم زوجته . ولما عبرت العتبة كان وجوم غير عادى يخيم على أنحاء البيت . وصبرى راقد فى السرير ممطوط يتلمظ بعد أن فرغ من الأكل . والأم جالسة وفى حجرها الطفلة ، وبدرية تحمل خدها على كفها . كنت جائعا فلم يسألنى أحد عن طعامى ، فقررت أن أدخل فورا إلى غرفتى . وترك هذا فى نفس المرأتين أسى وعتابا لأننى لم أبد اهتماما بالطفلة المريضة !!

وشيئا فشيئا نسيت الإحساس بالجوع وألقيت سمعى إلى اصطفاق الأغصان وجعلت أفكر فى أمر نفسى تفكير رجل يريد أن يغير ما حوله :

ــ لا بد أن تتغير هذه الحال . يجب ذلك . ولكى يتحرر السائل المحبوس ينبغى أن تتحطم الزجاجة مادام من غير الممكن أن ينفتح سدادها ...

وتنهدت . وحاولت أن أحدد نقطة المسئولية . النقطة الحقيقية التى تدور حول مأساة حياتنا التى تنمو كأنها نبات متحجر .

فلم أر مسئولا عن ذلك كله إلا الخوف . أنا خائف من أمى وخائف عليها وأمى تبادلنى نفس الشعور . لذلك اشتركنا معا فى دق الأوتاد وربط نفسنا إليها ، واستفاد من هذا الرباط ناس آخرون غيرى وغيرها .

ـــ لا بد أن تتغير الحال بضربة واحدة . تأتى من يد لا يجرؤ أحد على لومها ، ولا ردها ...

وتنهدت مرة أخرى وتساءلت ما الذى يجعل بدرية تكف عن استغلال مواردنا المعصورة ، إلا أن تموت أمى ؟!

وأنت الطفلة فى الحجرة البعيدة أنينا مسموعا ترددت بعده فى الصالة خطوات تروح وتجىء كأنما لتحضر شيئا لها . وتخيلت مع هذه الحركة أن أمى خارجة من البيت محمولة للمرة الأخيرة وأننى سأكون وحيدا بعدها مستقلا لا أسمح لأحد أن يدخل على ... فوجدت الفرق بين الحالتين هو الفرق بين غراب وغراب . فتحسرت وانتقل خاطرى إلى شخصية شاب قرأت عنه أنه هرب وحيدا لا يملك شيئا إلى إحدى البواخر التجارية . وظل يؤدى فيها من الأعمال ما يساوى أجر ركوبه ، حتى هبط أوربا فعاش وتعلم وعاد إلى وطنه شخصية مرموقة . أى قلب يملكه هؤلاء الناس . حرام أن يكون مثلهم طعام للفناء . أما أنا ...

ورحت فى النوم شيئا ما والأغصان تصفق على مقربة من نافذتى ، والكلب ينبح بعض الوقت ويكف . فرأيت فى غفوتى ثلاث نسوة . امرأة تبيع الهوى فى صدر شبابى فلم أستطع أن أشترى منها ، وشيعتنى ليلتئذ إلى الباب بسخرية مريرة . وفتاة قريبة العهد كانت تريد أن تهبنى الحب فلم أستطع أن أمد يدى إليها ، فودعتنى باحتقار ورضيت بزواج كانت تعده تعاسة . وامرأة كانت عندها منذ ساعات قلائل صممتها بخيالى ألف مرة وهى تمشى أمامى ثم عدت من عندها بحزن مبهم ...

واستيقظت على حركة أخرى ثم رحت فى النوم . وعند الصباح خيل إلى أن أمى وأختى ساخطتان على سلوكى . ثم كان البيت وقت الظهر

خاليا من الضيوف تماما ، وعلى وجه أمي علامات ضيق من الممكن أن تتحول إلى شجار لأى سبب فحاولت هذه المرة أن أكون شجاعا .

جلسنا نتغدى فى صمت لا تسمع فيه إلا حركات الملاعق وأمامنا طعام ملفق لا يفتح الشهية . وأدركت أمى أنى لن أبدأ بالحديث فقصدت أن تكون البادئة :

ـــ لماذا لا تسأل عمن كانوا هنا ؟

فقلت ووجهى إلى طعامنا ببرود غير مألوف :

ـــ لأنى أعلم أنهم صاروا هناك ؟

ـــ بدأت تتغير !

ـــ كل يوم هو فى شأن !

ـــ تذكر رضاى عنك وحاول ألا تكتم عنى شيئا .

فنظرت إليها نظرة فارغة وكأنما لا تربطنا ذكريات وقلت لها :

ـــ أنا لا أملك شيئا أخبئه عنك .

ـــ ليت الأمر كذلك .

ـــ أنا لا أملك إلا حياة فارغة لا تساوى همها .

فأجابت مرتاعة :

ـــ هل أنت ضجر إلى هذا الحد ؟! لم يعد هناك ما يستحق الضجر يا بنى ... الاثنان عدد ينقسم بسهولة . هل أنا عبء عليك ؟

ـــ لست عبئا على أحد ...

ـــ ليتنى مت قبل أبيك فارتحت من العناء . . أنت بحاجة إلى امرأة . . تزوج يا بنى فأنا لا أسد طريقك . لم أعد محتاجة إلا إلى جرعة من الدواء وكسرة الخبز . ومعاشى يكفى لذلك . أما الديون فقد كانت من أجلكم أنتم ...

وظللنا صمت اندفعت بعده أقول بصوت مرتفع وكأننى أخاطب غير أمى :

ـــ خلاص ضجرت من هذه الحياة . لقد اتخذت قرارا نهائيا ...

ولعل التصميم كان باديا فى وجهى بشكل لا يقبل الشك . ويثير الجزع والمخاوف . قالت أمى بنبرة أشد عطفا ولينا :

ـــ طيب وعلام عزمت ؟

فرددت بصوت أكثر ارتفاعا كأنما لأسمع جميع الناس :

ـــ على الانتحار ... على الموت ... على أن أقتل نفسى . هل فهمت الآن ما الذى أنوى عليه ؟!

وهبط الصمت مرة أخرى . وانسحبت أمى كأنها مجروحة ، وبقيت جالسا وحدى على المائدة بعد أن خلت من الطعام تقريبا ؛ أحس سخونة الغضب على شحمة أذنى ، وأراقب ملعقتها فى الطبق بعد أن تركتها مملوءة بالكشرى فلم ترفعها إلى فمها حتى لا تفوتها فرصة الفرار من تهديد ابنها ووعيده ...

وارتديت ملابسى ثانيا وخرجت . أما هى فقد كانت فى غرفتها المغلقة وخيل إلى وأنا أعبر الباب الخارجى وأرفس الكلب وهو يتمسح بى أن عينيها تودعانى من خلال زجاج إحدى النوافذ .

وأخذت أصعد الطريق المؤدى إلى الجبل حيث يقعد المرصد وخزان المياه . والشمس ربيعية لينة لم تقس بعد على أحد . وبعض نباتات وحشائش تنمو على يسار الطريق لكثرة تدفق الماء من المضخة التالفة الواقعة على المرتفع . وكانت هذه الأعشاب على تفاهة فصيلتها تشارك فى

الوجود وتبشر بالربيع الوافد بأزهار ملونة على قدر حالها . والجو — على العموم — قادر على أن يواسى المهموم .

وأخذت ألهث فوقفت أستريح . كان ظهرى إلى الطريق حين وقعت عليه كف ينبهني صاحبها إلى وجوده ... وعرفته من خلال صحة تالفة . وبوادر شيب يلمع على فوديه . أحد زملائى فى المدرسة كان هابطا من أعلى وفى يمينه صبى ابن ثمانى سنوات ، صورة واضحة مهذبة من أبيه . ووقفنا برهة نذكر الماضى ثم عرجنا على الحاضر فسألنى عن حالى ، وقال :

— هذا ابنى ... هلم ... هل عندك عروسة تناسبه ؟

— ولا عريس !

— أوه ... لم تخلف بعد ؟!

— ولم أتزوج .

فقال بأسف من فجع فى أمل كان محققا تماما :

— يا شيخ !! ... حرام !! ... (ثم أردف ضاحكا) : أطلق سراحه من أجل خاطرى . أطلق سراحه .

فسألته :

— سراح من ؟!

— سراح ولدك الذى تحبسه فى ظهرك . من الجائز أنك تسىء إلى البشرية إساءة لا يغفرها الله .

وفطنت فجأة إلى أنه انتقل من المزاح إلى الجد وكان يمسك بذراع ولده جيدا كأنه خائف أن يفر . فقلت له بلهجة المكسوف :

— كيف تتكلم ؟ ما هذه الإساءة التى لن يغفرها لى الله ؟

ــ من الجائز أنك تحبس فى صلبك إنسانا لو أطلقت سراحه لعاش حتى يخفف عن البشرية آلامها بمخترع من المخترعات .

قلت يائسا :

ــ غريبة ؟!

فاستطرد بحماسة :

ــ إنهم يعالجون المجانين فى المستشفى بطريقة تثير الجنون . الناس محتاجون إلى عقول فذة ... فأفرج عن ولدك أفرج عنه !

وضحك عاليا وهو يشد على يدى مودعا . ثم هبط المنحدر وابنه فى أعقابه ونظراتى تلاحقهما وتدعو لهما . ولما غابا عن بصرى استأنفت صعودى وأنا أستعيد كل كلمة من كلماته ...

آه ... لا شك أنه سعيد !! .

١٤



وظل الخصام بينى وبين أمى قائما ثلاثة أيام ، حدث هذا للمرة الأولى فى حياتنا . وفى اليوم الرابع أعلنت أنها ستبدأ فى خلع أسنانها بعد أن تصرف معاشها الشهرى لأنها لم تنم من الآلام طوال الليالى التى مضت .

فأجبت باختصار :

ـــ سلامتك .

فسألت بذل :

ـــ هل تحرص على سلامتى ؟!

قلت وأنا مطرق :

ـــ طبعا !

ـــ أتخاصم أمك ؟ كنت كلما أحسست أن قلبى بدأ يغضب عليك ابتهلت إلى الله أن يرعاك . يا عينى الواحدة التى أرى بها الدنيا ..

وكظمت غيظها وكتمت أنفاسها واغرورقت عيناها القويتان بالدموع . وكان وجهها شاحبا طويلا تبدو عليه — حقيقة — علامات الارتباك . فأحسست بجرمي واضحا فانفجرت أبكي .

— أتبكي أيها الرجل ؟! ... ماذا تركت إذن لأمك ؟!

واحتضنتني كأنني عدت طفلا . كان الوقت ليلا ، ونحن لا نزال على المائدة بعد انتهاء العشاء . ولم يكن هناك فرصة لاجتماعنا أيام خصامنا إلا فى ساعات الطعام ، وبعدئذ كنت أخرج أو يأوى كل منا إلى غرفته . ولم تزرنا بدرية منذ أسبوع وكانت أمي تذهب إليها للسؤال عنها .

وقادتني من ذراعي ودخلنا إلى غرفتي . وجلست على الكنبة ورقدت واضعا رأسي فى حجرها . ومالت تتحسس شعرى وتناجيني :

— حاول ألا تعتقد أنني ظلمتك يا فؤاد . ربما أكون قد حابيت أختك شيئا ما . لكن أنت تعلم أنها طماعة ...

ثم سكتت ويدها لم تسكت عن العبث بشعرى . وألقت نظرها إلى النافذة وجعلت أنا أنظر إليها وأفكر : « إنها تريد لحياتها ختاما هادئا . هذا كل ما يشغل بالها . وترى أن الهدوء والطمأنينة لا يكونان إلا تحت جناحي . لذلك هي تحرص على » . وقطع صوتها خيط أفكارى حين قالت بحماسة :

— لا بد لك من الزواج . لن أستطيع أن أراك عازبا بعد اليوم .

— إننا مدينون .

— هناك . هناك أشياء إن فكرنا فى تفاصيلها كان من المستحيل أن نعملها ... سأبحث لك عن بنت الحلال أولا وبعد ذلك ندبر الباقى .

— آه ... وأين بنت الحلال ؟

ـــ محجوزة لابن الحلال . وأنت ابن حلال .

ثم شردت وعادت تسأل :

ـــ ألم تعد تسمع شيئا عن فاطمة هانم ؟ ... رحمها الله ... أقصد عن بنتها زينب ؟

فأجبت بحذر :

ـــ أوه ... تزوجت من زمان !

فابتسمت ابتسامة غامضة :

ـــ إنه النصيب . على كل حال سأبحث حالا عن الفتاة التى تناسبك . ليتك أحببت وتزوجت وأرحت بالى من زمان !

ولم أرد عليها لأننى رثيت لها فقد بدأت تعتبر الأشياء التى تركناها بمحض إرادتنا أشياء نادرة وفرصا . وهذه أول مراحل الندم .

ثم أحببت أن أجرها إلى المهر لأعرف ماذا يمكن أن نصنع .

فقلت لها فى شبه مزاح :

ـــ الفتيات كثيرات يا ماما والعبرة بالجنيهات .

فأجابت بحماسة المقامر الذى يخلع خاتم الخطبة بعد أن تفرغ نقوده :

ـــ أبيع البيت ، أو على الأقل .. نصيبى فيه .

واستطردت بعد صمت لم أتكلم فيه ..

ـــ ومن الجائز أن تأخذ ترقية . ومن الجائز أن يأتينا رزق لم يكن فى حسابنا . على أنه يجب أن نشرع فورا فى البحث عن الفتاة . فؤاد ... يجب أن أزوجك قبل أن أموت !!

* * *

وركبنا القطار عصر هذا اليوم ونزلنا معا إلى العاصمة . وفى مرآة صالون حلاقة على واجهة المحل رأيت شبحى جنب شبح أمى . لكأن المرايا خارج بيوتنا أصدق تعبيرا من المرايا التى نقتنيها . خيل إلى أننى وهى شخصيتان تثيران القلق والرثاء عند العقلاء ، والضحك عند العاديين من الناس . لماذا يمسك كل منا بالآخر بهذه الطريقة ؟! إن كفها العجوزة ينبغى أن تمسك بيد أحد أطفالى لأن كفى لم تعد صالحة لأن تدلل وربما كان ذلك كله أوهاما ...

وذهبت إلى الإدارة وذهبت هى إلى طبيب الأسنان . ولما انتهيت من عملى لم أعد إلى المنزل فورا بل قصدت إلى منزل الست جليلة لأستشيرها فى أمر خطر على بالى .

وجدتها فى الداخل تتناقش مع بعض النسوة ، وكان صوت إحداهن يأتى عاليا حادا متلاحق الكلمات . وكن يتناقشن حول نقود . وكنت جالسا حيث جلست فى المرة السابقة على الكنبة فى مدخل البيت . وعلى مقربة منى جلست الصبية العرجاء التى عرفت منها أن اسمها (عزيزة) وإلى جانبها أخوها الأصغر فى الخامسة من عمره أو السادسة على الأكثر ، وعرفت أن اسمه (نبيل) وجعلت من الصغيرين تسليتى حتى تفرغ أمهما من شأنهما وتخرج إلى . كان بين يديهما أحد كتب القراءة المقررة على الأطفال ، وكانا يتنافسان فى القراءة فيه وكثيرا ما كانا يخطئان معا أو يعدل المصيب منهما إلى رأى المخطئ بطريقة بريئة تثير ضحك الكبار . ولما طالت جلستى نوعا فضلت أن أتسلى معهما . جلست الصبية إلى يمينى وجلس الصبى إلى يسارى وبابتسام وطيبة أنسا بى وارتاحا إلى كأنهما يعرفانى من قديم .

وجلسنا ندرس ونمزح ونبتسم . ومر بنا فى هذه الجلسة ثلاث نسوة خلفهن الست جليلة . ودعتهن إلى الباب ورجعت لا تخفى فى عينيها الدهشة لحضورى . وسلمت وجلست ببطء شديد وذراعاها متربعان على صدرها والصبيان واقفان على مقربة منا فى عيونهما ترقب للأوامر ورغبة فى أن يعودا إلى ما كانا فيه . وعلقت أنا على عملهما بكلام يرضى الأمهات . فوصفتهما بالذكاء وبأن شيئا من الرعاية قد يخلق منهما تلامذة ممتازين . فلمست قلب الأم .

ولم أر فى عينيها هذا المساء نظرات الحذر . وكان الصمت الراقد على شفتيها — بطبعها — كأنه قفل ، يوحى أنه على وشك التحطم . وأحسست أنها مستعدة لأن تقول شيئا على شرط أن تكون الفرصة ملائمة .

وعاد الطفلان فجلسا على القرب منا ورجعا إلى ما كانا فيه . والتقيت بالأم وجها لوجه ووجب أن أقول لها لماذا جئت وسألتها :

— إننا نتعامل منذ أكثر من عام يا سيدتى ، فهل أنت مرتاحة إلى معاملتنا ؟

— من غير شك ...

ونظرت فى عينيها فى هذه اللحظة فخيل إلى أن فيهما حسن استعداد .

— ماذا يكون رأيك لو أننى طلبت مبلغا جديدا ... إنه ... غير إنه ... مبلغ صغير ... صغير جدا .

فلم ترد على . غير أن وجهها لم يكن مطبوعا بطابع الخوف ولا بطابع الضجر ، ثم ردت بجواب بعيد عن سؤالى :

— هل رأيت هؤلاء النسوة اللائى خرجن منذ وهلة ... لقد عجزت أن آخذ من إحداهن حتى حقى المر !

ـــ لا علاقة بين الشيئين يا ست جليلة . ثقى بى !

ـــ أنا أعلم ذلك .

ثم سادنا صمت ، وجاءنا صوت (نبيل) يتهجى فى الكتاب ويتغنى بمعونة أخته : أ .. ح .. ب .. أ .. مى . أحب أمى .

ولما انتهى من الجملة لهث ومسح أنفه وكأنه عبر النيل . فابتسمت ونظرت إليه من بين أجفانى نظرة كأنها تحتضنه . ولعل الأبوة « الموقوفة » كانت بادية فى نظراتى كما يبدو النهار ، وعلقت الست جليلة وهى تنظر إلى ابنها قائلة بلهجة واثقة لكنها لا تخلو من الأسى :

ـــ صحيح يا بلبل ... هل تحب أمك ؟

فضحك الصبى ضحكة عريضة ولم يجب كأنه يسخر من أوهامها ، ثم انكب يقرأ من جديد وعلقت أنا على الموقف :

ـــ ومن هذا الذى لا يحب أمه ؟ خبرينى بحق ، هل يوجد شخص على وجه الأرض لا يحب أمه ؟

قالت وهى تسند ظهرها إلى الوراء على الكنبة العريضة :

ـــ لا بد أنك تحب أمك جدا ... هل تتمتع بحياتها ؟

ـــ نعم .

ـــ دام عزها عليك ودام عزك عليها ، إننى لم أشعر بهم أولادى إلا بعد وفاة أمى وأمهم ، وأنت ألا تشعر بذلك ؟

ـــ ليس لى أولاد .

فأجابت ببساطة :

ـــ لا ضرر .. غدا يعوض الله عليك . منذ متى وأنت متزوج ؟

فاحمر وجهي وخيل إلى أنني فتاة فاتها السوق ، وقلت بصوت لم يخل من اضطراب :

ــ منذ متى ؟ . منذ ... منذ ... إنني لم أتزوج حتى الآن !

وضحكت معي ببطء وهدوء ووجه محمر . ثم قالت :

ــ لا ضرر أيضا . أنت لا تزال فى عز شبابك . كل إنسان له من الأعذار ما يكفى لتبرير موقفه ...

ــ صحيح . إنك سيدة طيبة . يخيل إلى أن مستقبل حياتك خير من حاضرك بفضل أحد هذين الطفلين .

فأصغت كأنها تستمع شيئا جديدا . تطاير جزء آخر من الحذر الذى يبدو فى عينيها . لعلها لم تسمع مثل هذا الكلام من قبل . بل لعلها لم تسمعه من شخص مثلى وبمثل البساطة التى سقته بها .

سألتنى بدورها :

ــ هل لك إخوة ؟

ــ معنا فى البيت ؟ لا . كان لى أخت وتزوجت وانتهى الأمر .

فقالت بلهجة الخبيرات :

ــ إذن فأنت تعيش مع الوالدة فقط . آه ... كان الله لها يوم تدخل بينكما امرأة جديدة !! .

ــ أمن الضرورى أن يحدث هذا دائما ؟!

ــ غالبا ما يحدث .

ــ يفعل الله ما يشاء . هل نعود للموضوع ؟

ــ موضوع النقود ؟ ارجع بعد يومين فليس عندى الليلة كلمة نهائية .

ــ شكرا .

قالت برقة :

ــ العفو .

ونظرت فى عينيها جيدا وأنا أسلم وملت على الصغير فقبلته وأوصيته بالاجتهاد وربت على خد البنية .

* * *

وسهرت أمى تحكى عن كل ما صادفها فى عيادة الطبيب وتعلق على آلام الناس بطريقة من يريد أن يتسلى عن آلامه . ووجدت فى هذه الليلة خبرا سعيدا استطعت أن أزفه إليها :

ــ بلغنى الليلة وأنا فى الإدارة يا ماما أنه من المنتظر أن يلحقنى الدور ؟

فهتفت كأنها لا تصدق :

ــ فى الترقية ؟!

ــ نعم فى الترقية .. إلى (السابعة) العزيزة ؟

فكادت عيناها تدمعان :

ــ دعائى لك !!

ولم تفطن الأم إلى أن الله ظل يستمع إلى دعائها فى هذا الشأن ثلاثة عشر عاما ، وأنه ربما لم يمن على بهذه النعمة إلا لتكف أمى عن الإلحاح . ثم عدنا إلى وصف ما لقيته فى الخارج وكان أهم ما شغلها تلك السيدة الوسيمة التى صادفتها هناك وعلامات الثراء البادية على هيئتها . ثم استطردت أمى :

ــ عندما تتوطد العلاقة بيننا شيئا ما سأسأل عن أولادها .

وفهمت قصدها : ثم قلت :

ـــ إذا سارت الأمور على ما يرام فعندى فكرة ربما تروقك .

فأصغت بطريقة تدعو إلى التشجيع فاستطردت وكأننى أمزح :

ـــ ماذا لو منحنا العلاوة الجديدة التى سأنالها للست جليلة نظير مبلغ صغير نأخذه منها ونقدم به (شبكة) لإحدى الفتيات ؟!

ـــ رأى حسن . وهل توافق الست جليلة ؟

ـــ الجواب عندها لو سألناها .

وسمعتها تتنهد وانكبت على معطفها تركب له بطانة بعد أن نزعت عنه البطانة البالية ، أما أنا فقد صرفت عنها نظرى مخافة أن أرى على وجهها ـــ ولو وهما ـــ أنها غير مقتنعة وأنها تجاملنى فحسب .

* * *

وحل الموعد المضروب فذهبت إلى مسكن الست جليلة . كان الجو مائلا إلى الحرارة . وتراب الحى الذى لم ترصف أرضه يعقد على ارتفاع غير منخفض سحابة ضبابية خفيفة . ولما طرقت الباب فتحت (عزيزة) . وكان أخوها واقفا إلى جوارها أسمر مسمسم الملامح كأنه قطعة من الشهد . وتعلق بذراعى وهو يسألنى عما إذا كنت أملك كتابا فيه صور جميلة فأهديه إليه ؟ فوعدته به وأنا أبتسم ، ثم جاءت أمه فحالت بيننا . وما لبث أن غاب عنا وذهبت عزيزة تجهز فنجالا من القهوة ، فى اللحظة التى جلست الأم فيها على الكنبة ووجهها يحمل علامات التعب أو التفكر . فقلت لأفتح باب الحديث :

ـــ هل أنت بخير ؟

فأجابت وملامحها لم تتغير :

ـــ الحمد لله . (ثم أردفت وهى تبتسم فى استسلام وتقلب كفيها) نأكل ! ... نجرى فى النهار . وننام فى الليل !!

ـــ شأن كل الناس !

ـــ ليس كل الناس . لو لم يكن معى هذا الصبى وهذه الصبية لضحكت من متاعب الدنيا .

قلت فى نفسى : إنها تشكو . هذه التى سعيت إليها لتفرج ضائقتى لا تملك الآن إلا أن تبثنى شكواها . إن ظروفا قاسية دفعتها حتما إلى هذه المعيشة . يا إلٰهى إن المتاعب إذا لحقت حياة النساء جعلت منهن كائنات يطلبن رثاءنا مرتين . قلت وأنا أتنهد بعد أن تركت لنا الصبية فنجالين من القهوة ومشت :

ـــ لا تحزنى !! يكفى أنك سيدة وأنك حملت العبء كما يحمله الرجل !

ـــ أنت شاب رقيق الطبع .

فاستطردت دون أن أحس :

ـــ لقد تركنى أبى رجلا ، أو على الأقل شابا يستطيع أن يكسب . تركنا وترك لنا . ولكننى مع ذلك .. تعثرت فى الطريق .

فانفجرت أساريرها كأنما كانت آلامى (مسكنا) هدأ من آلامها ، ونظرت بعينين أكثر قربا ومودة وأخذت فنجالا وقدمت لى فنجالا وجعلت ترشف ببطء وهى تنظر إلى .

ومما لا شك فيه أن كلا منا كان قد نسى المهمة الأساسية التى التقينا من أجلها وكنت أنا أكثر نسيانا . هل جربت لحظة طمأنينة تخللت أيام مخاوف ، أو سنة من النوم تخللت ليلة أرق وألم ؟؟ كان هذا هو نفس

إحساسى . وكل ما فيها يؤكد أنها أنثى غلبتها الظروف فمنحتها حياة شائكة الأطراف .

وظلت صامتة ترشف وتنظر وكأنها تستزيدنى كلاما ، فقلت :

ـــ الناس لم تجعل آخر الطعام « حلويات » عبثا ...

فاستفهمت بسرور :

ـــ لست أفهم !

ـــ الختام الحلو ينسى متاعب دهر كامل . أليس من الجائز أن تكون أيامك المقبلة كالحلويات فى آخر الطعام ؟

فانفجرت تضحك ، واحتقن وجهها فصار فى لون القرمز . وكان هناك جزء من كتفها يبدو ناصعا عند سفح العنق ... يبدو من فتحة الصدر العريضة . وشعرها الأسود كان شبه مغسول . ولما زالت آثار الضحك عاد الهدوء فخيم كأنما لم يحدث شىء . تماما كما ينزل الصمت بعد ضوضاء عنيفة . ونظرت وقالت :

ـــ إن معاملتى للناس جعلتنى أكتسب خبرة أعرف بها نفوسهم . يحدث مثلا أن يطلب منى رجل تبدو عليه علامات التدين ـــ مبلغا من المال ويقدم لى الضمانات التى أرضاها ، ولكنى مع ذلك أحس أنه مماطل غشاش . وبمضى الزمن يصدق تخمينى . وقد يحدث ...

فقاطعتها ضاحكا :

ـــ ترى من أى نوع أنا ؟

فأجابت وفى عينيها حنان :

ـــ أنت ؟ ... ستعرف فيما بعد .

ثم قالت بعد إطراق :

ـــ القصد ... عرفت طريقة معاملة الناس بعد أن دفعت ثمنها غاليا . أتدرى مثل أى شيء ؟ مثل التى فقدت بصرها فى شبابها فعلمتها الجدران وعثرات الطريق كيف تكتسب خبرة العميان ...

ثم ابتسمت فى يأس ونظرت إليها فخيل إلى أن كل شيء فيها وديع ، وأنها لا تمانع بتاتا أن أمسك كفها أو أتحسس شعرها . لكن تأملى لم يطل فقد سمعنا دقة شديدة على الباب وأصوات صبيان مختلفة يرتفع فوقهما جميعا صوت يقول :

ـــ نبيل لسعته عقرب ... هناك ... عند مخزن الخرق والورق حيث كان يلعب .

* * *

كانت عيناه السوداوان مليئتين بالألم تنحدر منهما الدموع فى تلاحق كأنما تسحها قطارة . وعليه جلباب بدت خطوطه سوداء تحت مصباح الجاز الذى خرجت به إحدى النسوة من بيت قريب . وكنت أول من وصل إلى الصبى فقد خرجت أعدو إليه وربطت ساقه بمنديلى . وحملته على ذراعى فلف يديه حول عنقى وأخذ ينتحب . ولما تأملت وجهى فى النور رأيت على خده لطخة صنعها التراب والعرق ، ومع ذلك نازعتنى نفسى أن أقبله . وأخذ يتلوى بعنف كأنما حمله الحنان الجديد على ذلك ، وأفهمت أمه التى بدا عليها الجزع أنه لن يموت وأن المهم فى الأمر أن نسعفه بسرعة . واخترقت به أقرب طريق إلى الشارع الرئيسى لنأخذ سيارة أجرة إلى المستشفى وكانت هى من ورائى . وتبعنا بعض الصبيان مسافة غير قصيرة ثم عادوا .

ولما استقر بنا الجلوس فى السيارة صممت الأم على أن تنقل الصبى إلى حجرها . وكنت أميل عليه لأجس نبضه وكانت السيارة تميل بنا فى المنعطفات فتتلامس أجسامنا نحن الثلاثة فأحس أثر التلامس على الرغم من كل شىء .

أما المظهر الذى كان باديا علينا والذى يخص عيون الناس فى العادة . فتستنبط منه العلاقات بين كل اثنين ـــ فقد كان غير مريب . ومن المحتمل أن يكون السائق قد ظننا زوجين مع فارق فى الطبقة ، بسيط جدا ، وفى السن أيضا ، لأنها تبدو أكبر منى ببضع سنوات . وهذا الصبى ذو الجلباب المخطط والقدمين المعفرتين بعد أن فقد شبشبه أثناء الحادث ، جائز أن يكون ابنى . فإن ملابسى ليست أنيقة ولا تدل على الرخاء ولا العيشة المرتاحة ، وليس هناك إلا وجهى الذى يدل على أننى انحدرت من أسرة ذات عز قديم . من تلك الوجوه التى تشير إلى ماض خصب وحاضر مجدب . وتثير فى النفوس الحساسة شيئا من الرثاء .

وربما كان هذا لا يعنيك بقدر أن تعلم أننا وصلنا إلى المستشفى بعد ربع ساعة والتقينا بممرضة رقيقة ألقت علينا درسا فى وجوب المحافظة على الأولاد . وكان يبدو أنها مرهقة من العمل ، إلا أنها طيبة القلب . ولم يخل الموقف من التلكؤ ولا ضياع الوقت حتى أخذ الصبى (المصل المضاد) فحملته من جديد وخرجنا إلى الطريق وناديت سيارة أجرة .

وكانت جلستنا ونحن عائدون أكثر طمأنينة وحلاوة بالتالى ... كان الصبى فى حجرها وكنت أنا إلى جوارها . والعربة قديمة كثيرة التفزز يسوقها صاحبها ببطء وحرص . ولأمر لست أجزم به لم يوقد المصباح الداخلى . وكان (نبيل) يئن لكن بشكل غير متصل ، فكنت أميل

لأجس نبضه أو لأربت على خده أو لأعزيه عن آلامه . وبعد فترة ونحن نعبر جسرا على النيل سألنى الصبى فجأة بنبرة يخالطها الألم :

ـــ هل أحضرت لى الكتاب ذا الصور الجميلة الذى وعدتنى به ؟

فسعدنا كأنما نطق للمرة الأولى وأدركنا أن هذا أول دليل على السلامة ، وأن الألم لم يعد قادرا على أن ينسيه شئون حياته .

فملت أقبل خده ... فى الظلام النسبى فى نفس اللحظة التى فعلت أمه فيها مثل ما فعلت ، فتلاصقت خدودنا على وجهه واختلطت أنفاسنا واستطاعت واستطعت أن نعبر فى صمت لا يوصف عن مقدار حاجة كل منا إلى الآخر ؟! ...

كان رأس الصبى إلى ناحيتى وهو مستلق فى حجرها وقد لفت ساقيه فى شال قديم وعيناه تنظران إلى سقف العربة فأرى اتساعهما فى النور كلما مررنا على مصباح . ولعله كان يتساءل من أين جاء هذا الحنان ؟ وكنت مستندا إلى الوراء فى جلستى أنظر بشبه ذهول إلى الطريق وظهر السواق وفخذى لصق فخذ الست جليلة ، وخواطرى تثب فى كل مكان إلا « حلوان » حتى وصلنا إلى البيت .

لم يكن فى الحى صبيان ، فقد تأخرنا فى العودة ووجدنا (عزيزة) قلقة بانتظارنا ، وذهبت تصنع لأخيها شرابا دافئا فى الوقت الذى نهضت فيه مستأذنا للخروج . وتكلم الصبى يستبقينى فوعدته بالعودة ، ونظرت أمه إلى تحاول أن تشكرنى فعجزت عن التعبير إلا عينيها . وفى الشارع الرئيسى هبت على نسمة شمالية أيقظتنى من أحلامى فسألت نفسى سؤالين لعلهما يجولان بخاطرك :

« لماذا لم نتحدث عن المبلغ ؟! » .

لأننى رأيت فيها فى هذه الليلة امرأة غير التى رأيتها من قبل .. ومعنى أكبر من النقود شغل خاطرينا .

« وتكاليف الانتقال إلى المستشفى ؟! » .

ولم يكن ممكنا أن أقبل — ولو أننى محتاج إلى نقودها — أن تدفعها هى ، بل ولم أرها تحاول .

وكانت مهذبة فى ذلك أو كانت حسنة الإدراك ، ودفعت أنا ما يقرب من ثلاثين قرشا ، كانت كثيرة على ؛ ولم يبق من الخمسين قرشا التى أخذتها لأشترى بها قميصا إلا ريالا ، وكان قطعة واحدة من الفضة رننته ليلتئذ خمس مرات على أحد أحجار الرصيف !



١٥

ـــ لماذا تأخرت هكذا يا بني ؟! قلقت ليك . البيت خال والصداع ينسف رأسي بعد خلع الضرس . أخشى أن يكون الطبيب أخطأ في شيء ! هل اشتريت قميصا ؟ ماذا قالت لك الست جليلة ؟ عسى أن يكون الله قد سهل ! .. آه سأقوم لأتمضمض .

بهذا كله هتفت أمي بعد دخولي وأنا جالس أنظر في صمت وابتسام كأنني (مسطول) أو في معزل عن الحوادث . وحين رأيتها عازمة على القيام للمضمضة تطوعت فأسرعت بالذهاب لتجهيزها . ورجعت إليها بالدواء ومعه وعاء فارغ ثم تركتها وذهبت إلى حجرتي لأكمل خلع ثيابي .

كانت راقدة في الفراش مرتفعة الحرارة شيئا ما ، ووجهها شاحب وفي خدها نقرة صغيرة ، وجلست على الكنبة ونظرت إليها فلم ينبض قلبي بعنفه المعهود ، كأن شيئا من الحنان قد غاض منه ، وتألمت ، حاولت

بيني وبين نفسي أن أستنهض روافد الحب بالنسبة لأمي ، وأن أتأكد من قوة تدفقها القديمة فذهبت جهودي هباء . فتألمت مرة أخرى .

وفي هذه اللحظة التي سألتها فيها عما بها تركتها تجيب وانصرفت إلى أعماق أفتش عن جواب لهذا الموقف . « ليس من الممكن أن نفصل الحب عن الحاجة بتاتا ، فلو ألغينا من الأمومة درها وحضنها وحرصها المتطرف ، وجعلنا العلاقة بين الوالدة والمولود بمجرد وضع الجنين لتحول الرقم إلى صفر . فالحب في كل صوره حاجات وذكريات يا أماه !! » .

وتألمت مرة ثانية لأن (حاجة) أقرب إلى الطبيعة ، وأدنى إلى العرف بدأت تزحزح أمي عن موضعها في نفسي . هناك في الجيزة امرأة شعرت الليلة أنها على استعداد لأن تسكن آلام نفسي بطريقة جديدة على ، وإن كانت في قدمها ترجع إلى بدء الخليقة . وبسبب هذه اللحظات التي قضيناها في المركبة لم تقلقني آلام أمي كما كان يحدث في العادة . يا سلام !!

إن علامات التغير الليلة واضحة على ملامح حياتنا !

ـــ سلامتك يا ماما !

وقلتها بتأنق وتحنن شديدين حرصا مني على أن تصدقني أمي فردت على بالدعاء لى : بأن يسعدنى الله ، وأن تعيش من أجلى ! حتى ترى أولادى !

وسكتت وقلبت نظرها في السقف ورقص على شفتها الذابلة ظل ابتسام ثم قالت وكأنها لا توافق على ما حدث :

ـــ بدرية كانت هنا .

ـــ عال .

ـــ عندى بالنسبة إليها أخبار سارة .

ـــ خير .

ـــ إنها ... إنها حامل !

ـــ زادها الله خيرا وبركة .

فسألت وكأنها فطنت إلى شيء ما كان يجب أن ننساه :

ـــ ماذا عملت عند الست جليلة ؟

وفى أعماق عينيها بدا كأنها تعرف ، أو بدا لى كأنهما عدستان لمنظار جديد يغوص حتى نهاية أغوار النفس فيعرف ما فيها . ووقعت فى ربكة . وتذكرت الماضى ... قصة الخمسين قرشا التى حجزتها من مرتبى ذات يوم من ورائها ، وذهبت بجزء منها إلى امرأة كانت تبيع الهوى . وها هو ذا التاريخ يعود مرة أخرى مكتوبا على ورقة مالية من فئة الخمسين قرشا . كانت الخطة أن أخرج من عند الست جليلة فأذهب لأشترى قميصا لأن أحد القميصين اللذين أملكهما قد انقطع فى بقعة لا تملك أمى سترها . من فوق عظمة الترقوة البارزة أكثر من اللزوم فى جسمى والتى تأكل نسيج القمصان كأنها ماء النار . وهأنذا فى هذه الليلة قد تصرفت فى المبلغ ، غير أن التصرف جاء بطريقة متطورة تناسب سنى وعقليتى وتفكيرى والوقت الذى أعيش فيه !! علىّ أن أنهى هذه الحالة القائمة بيننا بضربة واحدة . أنكر الوصاية ، أو ألغى المعاهدة بكلمة أعلنها . أصرخ فى وجهها قائلا لها : لا تسألينى عن شيء . أعطينى كل الشئون بطينها وأثقالها ودعينى أخطئ فى تصريفها فليس صوابك يا أماه بأحسن من خطئى !

لكنني نظرت فوجدت امرأة مريضة . ترقد طويلة هزيلة كأنها عود من القصب.. وشيء من شعرها الأبيض ظاهر من تحت المنديل فوق أذنيها بالضبط . لكن ... لا بد أن أقول لها ردا . نعود للكذب مرة أخرى كأننا صغار ؟! ذلك شيء بغيض لكن متى يكون الكذب مكروها ؟ طبعا إذا كان هناك مجال للصدق . وهل تركت أمي للصدق مجالا في معاملاتنا . لا بد أن أكذب .

ـــ لم أجدها في البيت فجلست على النيل أشم هواء الله !

ـــ هواء الله ! (وكأنما لم تعجبها الكلمة . كأنما رأت فيها شبح التذمر) حسن . قم فتعش . سخن الرز وابحث في النملية عن خبز طازج . أوه .. نسيت .. إن وابور الجاز يحتاج إلى جهد في إشعاله . أقوم ؟! .. أمك لم تعد قادرة على الخدمة يا فؤاد .. إن ..

فقاطعتها :

ـــ لا .. لا .. لا تتحاملي على نفسك . سآكل لقمة والسلام : أي لقمة . النفس بائتة . لم تعد هناك شهية فالجو حار .

ولما دخلت المطبخ وجدت وابور الجاز كأنه خارج من حريق ، وحاولت إشعاله فكاد يشعلني . فتمتمت : « كل شيء يحتاج إلى تجديد لكأن أمي تسد الطريق في وجه تدفق الزمن بكفها المعروفة . لا . لا بد أن يتغير كل شيء حتى ولو لم ترد ذلك » !

وفي المساء التالي ذهبت لأعود الصبي . ألا ترى ذلك واجبا ؟!

حملت معي ثلاث قطع من الشيكولاتة وكتابا مصورا وعدة أقلام ملونة وذهبت ووضعت كل هذا بين يديه فضحك كأنه ملك الدنيا ، ومن الغريب أنني أنا الآخر أحسست أنني ملكتها فلعنت أبا الريال !!

وكانت الست جليلة والصبية عزيزة واقفتين خلفى تبتسمان فى رضا وسكون . ثم ما لبث الصبيان أن انصرفا إلى الداخل يأكلان ويقرآن ويتناقشان . وظللت أنا جالسا مع الست جليلة .

كانت أكثر رونقا من اليوم الماضى كأن شيئا فيها لا أعرف ما هو كان تالفا ثم تجدد . وفى مرآة على مبعدة منا رأيت نفسى كذلك أكثر رونقا ، كأن شيئا لا أعرف ما هو كان تالفا ثم تجدد .

كانت جالسة بشق على الكنبة متكئة بكوعها على المسند الخلفى ومتجهة بوجهها إلى . وأخذت تبلع ريقها كأنها تفتش عن كلام وتهز ساقها المدلاة على الأرض . وكنت أعرف أنها تريد أن تشكرنى كما يبدو فى عينيها ، فقالت بتردد لطيف :

ـــ أأتكلم ؟

فأجبت بلطف :

ـــ لا . لا داعى . إذا كان ما سيقال معروفا فلا داعى للعناء .

فزمت شفتيها والابتسام فى عينيها كأنها تحاول أن تسد نبعا حلوا . ثم قالت :

ـــ هيه ... نحاول إذن أن نتكلم عن شىء غير معروف ؟!

ـــ موافق .

فسألت بطريقة من قهر فى الجولة الأولى :

ـــ أنت خرجت من الأرض أم نزلت من السماء ؟!

ـــ وهل أحزنك ذلك ؟!

فزمت شفتيها مرة أخرى وترقرق الابتسام فى عينيها . وبدت صغيرة حلوة ثم قالت :

ـــ بالعكس . كل شيء بالنسبة إلى يعتبر ربحا !

فأيقنت أنني على أبواب تجربة وأن الحياة بدأت تلون لوحتى بأصباغ كثيرة ، فقررت ألا أفر وتذكرت قول (فهمى) المحب المصدور : « إن خير علاقة تربطك بالأشياء هى ... معرفتك بها » سأسبح إذن مع التيار يا أماه ... فانتظرينى حتى أعود !!

قلت بعد أن وضعت رجلا على رجل وخرج من أعماق إنسان جديد :

ـــ حاولى أن تثقى بى دائما لأننى مستعد أن أمنحك ثقتى .

ففغرت فمها وفتحت عينيها وشردت فى الفضاء واندفع الصبيان نحونا بشكل مفاجئ ليسألانى عن شخصين فى إحدى الصور : « رجل وامرأة يجلسان عند مدخل غابة وقت الشتاء ، والأشجار عارية وفى الأفق تبدو مبانى القرية وعند أقدام هذين الإنسانين حزمة من الحطب جمعا أعوادها فى البرد . لوحة جميلة منقولة كتبوا تحتها حكاية عن المساكين ... » .

وخرج الصبيان بعد أن عرفا من هم المساكين !! ... ونظرت إليهما الأم وأمرتهما ألا يعودا وأن يعتكفا فى مكان . ثم تكلمنا عن المساكين نحن الاثنين ، قصصت عليها قصة الأب الذى ترك زوجة وبنتا وولدين رعتهم الأم ، حتى صار الأكبر شجرة مثمرة ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى تركهم وانصرف لشئونه . « وكأننا يا بدر ما رحنا ولا جينا » فلما فجعت الأم فى غرس يديها صادرت أمانى بنتها فى الزواج وأجبرتها على أن تتزوج من لا يوافقها سنا ولا ثقافة ولا ميلا ولا تفكيرا ولا أى شيء . وهذه هى قصة زينب ولست أدرى لماذا ذكرتها ولماذا قصصتها عليها .

وظهر التأثر على وجه الست جليلة فقالت من فورها :

ـــ هل المساكين لا يلدون إلا مساكين ؟ ! فسارعت أقول :

ـــ ليس ضروريا أبدا .

فضحكت ضحكة من يريد أن يسوق دليلا على صدق ظنه .

ـــ إذن ... فاسمع قصتى .

* * *

كان أبوها « منجدا » رجلا كثير العيال قليل الكسب ظل طول حياتنا قابعا فى الطبقة الدنيا من العمال . لم يفكر يوما أن يبتكر رسما جديدا لوجه لحاف . كل شيء فيه لا يتغير . يشتغل فى الشتاء نوعا ويظل طول الصيف شبه عاطل . يسب ويلعن ، ويسعل من الربو ويقسم لزوجته وأولاده كل يوم أن التراب الذى تخلل صدره من القطن القذر الذى ندقه بالقوس ـــ لو جمع فى كومة واحدة لعجز الحمار عن نقلها إلى « المقلب » .. ولذلك فقد اعتبر نفسه (فريسة) . وكان يقول : نعم فريسة افترستنى الصنعة ثم سلمت البقية الباقية منى لهذه الزوجة الملعونة السليطة القليلة الحياء . ولم تكتف هذه الزوجة بما نالته منى بل استدعت شركاء جددا ، عزمتهم على البقية الباقية ، من البقية الباقية ، هؤلاء الشركاء هم أولادها منه البالغ عددهم ثمانية ، ستة من البنات واثنان من الذكور . كلهم ملاعين أبناء ملعونة ، كانوا ينضمون بلا استثناء إلى صف أمهم فى المعارك اليومية التى تنشب بين الزوجين فى الصباح أو فى المساء .

وكانوا يتكدسون فى حجرتين ينام الكبار فى حجرة وينام الزوجان فى الأخرى مع الصغار الذين لا يدركون ـــ لحداثة سنهم ـــ ما عسى أن يدور فى الغرفة .

ولكره أبيها فى صنعته أقسم ألا يعلمها لأحد من أبنائه ، فتعلم أحدهما حلاقا وفتح الله عليه لدعاء أمه فتخصص فى تصفيف شعر السيدات ، لكنه لم يكن يمد أهله بشيء . وتعلم الثانى (ترزى) لكن الله ابتلاه بحب الغناء والموسيقى فكان يضيع كل ما يكسب على الآلات الموسيقية وتعلم الدروس . وفى كثير من الليالى كانت شقتهم تموج بأشياء متناقضة تقتل من الضحك ، عندما كان هذا الشاب الصغير يجلس فى الصالة يغنى على « العود » بصوته الكريه فى الوقت الذى يرتفع فيه شجار الأب مع الزوجة أو أحد الأبناء حول اختفاء سيجارة أو قطعة من اللحم أو شيء من النقود .

وكانت الزوجة تطعم هؤلاء الأولاد من دخل زوجها وما تخطفه من أحد أبنائها وتقول لهم حينما تضيق بهم الحال :

ـــ إنكم قوة مخيفة ، إننى كحارس السيد قشطة يدخل ذراعه فى فمه ومن المحال أن يشبعه ، وفى يوم ما لا بد يفقد ذراعه . ثم تدعو على نفسها بالموت فرفع الزوج الضيق الصدر كفيه إلى السماء كأنه يبتهل إلى الله أن يستجيب .

ويضحك بعض الأولاد ويصخب بعضهم فى الوقت الذى يكون فيه الشاب الحلاق مشغولا بوصف محاسن إحدى اللاتى كن فى الصالون فيكف الثانى عن الغناء ويستمع وهو يعزف .

وعاشت جليلة فى هذا البيت ، بين الضجيج والفقر وثلاثة من الكاسبين ، كل منهم يجرى فى اتجاه مخالف ، والأم تهتف بلا فائدة . لذلك كان أى رجل يتقدم لأى فتاة من بناتها لا بد أن يحظى بالقبول . ومن المؤكد أن التساهل فى زواج الأوليات كان أعلى نسبة من التساهل فى زواج

من بعدهن ، لأنه كلما خف زحامهن خف القلق عليهن ، لكن (جليلة) كانت الأولى فلم يشب خطبتها شيء من التدلل . فقد رجع (المنجد) إلى بيته ذات مساء واختلى بزوجته وأخبرها بالموضوع .

كان يشتغل فى بيت رجل يبدو عليه أنه مستور الحال . عاد الرجل من الخارج وجلس إلى جوار (المنجد) يجاذبه أطراف الحديث ، وذكرا النساء لما رأيا الفراش الجديد ، فجعل كل منهما يقص على الآخر فى نشوة ومرح ما لقيه ليلة عرسه أو ليلة من الليالى . وعندئذ قال رب البيت :

ــ ولقد ولت الأيام يا صديقى وأصبحت زوجتى كالثوب الذى نحله الغسيل ... مريضة مريضة ... تشفى يوم الخميس مثلا لتستعد للمرض يوم الجمعة . وضحك الاثنان . وتكلم المنجد عن الجنية التى تسكن شقتهم وعن أن الله تعالى لم يمتحنها مرة بالمرض وتمنى لو أخذ كل واحد منهما حظ الآخر . واستطرد المنجد قائلا : إن عنده سبحة من البنات سبحة مشكلة الحبات : حبة من اليسر ، وحبة من الخشب ، وحبة من الصدف ، وحبة من سن الفيل ، وربما كان بينهن ما لا يعرف نوعها !

قال رب البيت :

ــ ها . ها . إنك رجل خفيف الظل زوجنى إحدى بناتك هل توافق ؟

ــ حرام . أليس لك امرأة ؟

ــ قلنا مريضة . هل تخاف ابنتك أن يكون لها ضرة ؟

كانا كأنهما يتسليان عن همومهما بعقد هذه الصفقات . ولم يكن هناك دافع قاهر .. ولو فى الظاهر . وتزوجت جليلة بعد ستة أشهر وكان طبيعيا أن تنتقل ، من فقر إلى فقر ، ومن ضيق إلى ضيق ، ومن منزل يصخب بأخواتها إلى آخر يصخب بأولاد ضرتها ...

وانقسم البيت الجديد إلى بيتين بمرور الزمن بعد أن أنجبت الزوجة طفلة سمتها (عزيزة) وأصبحت تلقى من أبناء زوجها مضايقات لا تحصى . ثم ضاقت ذات يد الرجل بعد أن أنجبت ابنه « نبيل » واتسمت أعماله بالقسوة بالنسبة لزوجته الجديدة ، كأنما كانت هى سر التحول . وبدأت أعماله تتسم بالغموض وخيل إليها أن كسبا غير مشروع كان يتسرب ليد زوجها أحيانا .

كان « محصلا » فى إحدى الشركات . وفى ليلة من الليالى دخل فى وقت متأخر على زوجته وأيقظها . وكان يبدو أنه غير طبيعى كمن يحاول أن يخفى فى نفسه أمرا . وبعد وقت أوى الزوجان إلى الفراش . وقال لها قبل أن ينام إنه مسافر غدا فى إحدى عربات الشركة ، وسيغيب يومين فى هذه الرحلة للتحصيل من الأقاليم .

ونامت ليلتئذ وشىء من الخوف يتسرب إلى قلبها . ونظرت إلى وجه زوجها النائم فوقفت نظراتها عند فكه العريض وشفتيه الغليظتين المطبقتين ، ولم تدر لماذا تذكرت — بعد أن وقع بصرها على عنقه — قصة الزوج الذى وجدوه مشنوقا فى الفراش ودخلت زوجته فى صميم المأساة كما نشر فى الجرائد .

وانقضى يومان على غياب الزوج فى الأقاليم ، وفى اليوم الثالث جاءها النبأ الفاجع ، وهو أن عربة الشركة انحدرت بزوجها ومعه السائق إلى الترعة الموازية للطريق أثناء عودتهما إلى العاصمة ، وقد عثر على جثة الزوج فى السيارة . أما جثة السائق فلم يعثر لها على أثر .

ثم ظهر بعد ذلك أن الوفاة لم تكن من الغرق لكنه غرق بعد أن خنق تماما . وبقيت دوائر البوليس مشغولة بظهور السائق فقد رجح لديهم أنه

هو الذى ارتكب الجريمة وأن قطاع الطرق لا يخنقون .

وعبثا حاولوا العثور عليه ، ودبت الشكوك إلى نفوس المسئولين فى الشركة فى أن المحصل والسائق اختلفا كما يختلف الشريكان ، وأن القوى منهما قتل الآخر واستولى على ألفين من الجنيهات وهرب . ورجح الذين يطالبون الشركة بالتعويض أن السائق جرفه التيار كما جرف حقيبة النقود ...

وتعقدت القضية . لكن ذلك كان على حساب الطفلين والزوجة الست جليلة ، التى باتت تندب أيام بؤس قضتها فى أحضان أبويها بين أم تصرخ وأب يصيح بينما أخوها يعزف على العود ويغنى ، وبنتان من أخواتها تضرب إحداهما الأخرى ، فقد كان كل هذا بالنسبة لحاضرها فقرا جميلا بلا دموع ؟ ..

قلت للست جليلة عندما وصلت إلى الحد من قصتها :

ـــ أوه ... إن قلبى مفعم بالحزن وقد زدت من الحمولة .

ـــ هل تألمت ... أنا لا أحب أن أكون سببا لآلامك .

ونظرت إلى وبدأت سحنتها تتغير بطريقة غير مألوفة لدى ، لم أجربها من قبل ، كان هناك رغبات ودوافع وشجاعة وجبن ومتناقضات كثيرة تطفو على وجهها حتى خيل إلى ـــ بعد أن تدانينا فلم يفصل بيننا إلا المسند الصغير للكنبة ـــ أن جيدها لم يعد قادرا على حمل رأسها الذى مال فجأة فى اتجاه كتفها المدورة . وكانت دبدبة أرجل الصبيين على السطح تنزل إلينا . أما أنا فقد ظللت جامدا بحكم الخوف وقلة التجربة ثم تذكرت أننى صممت أن أسبح مع التيار ولا أهرب من التجارب حتى لا تطرد حياتى على نمطها الممل . ومع ذلك فلم أستطع أن أصنع شيئا .

وهبط صمت خيل إلى أنه طويل . وحاول كل أن يحيد ببصره عن الآخر وأخيرا قالت لى :

ـــ هل ... أنا ... هل .. سببت لك ألما ؟ إنك غير مرتاح فى جلستك هذه ...

ورفعت المسند من بيننا فوضعته خلف ظهرى بينى وبين المسند الخلفى الكبير . فأصبحت المسافة خالية من الحواجز . ووقع نفسها على وجهى وهى تميل بهذه الحركة فى اللحظة التى كانت تقول فيها : لماذا لا ترتاح ؟ ... هل سببت لك ألما ؟؟

وأتاحت لى بحذق ومهارة ودربة لا نظير لها أن آخذها بين ذراعى وأقبلها . ودبدبة الصبيين فوق رأسينا توحى بأن الوقت متسع لنا . لكن الست جليلة فصلت بيننا بسرعة ، فرأيت دمعتين تجريان على خدها وندما واضحا تبرق به عيناها . وأعادت المسند الصغير حيث كان وهى تهمس بصوت مبحوح :

ـــ ماذا جرى ؟ ماذا عملنا ؟؟ لا بد أن نقف عند هذا الحد ؟!

وأخذت تبكى . فعدت طفلا أكاد أبكى ... ثم تسللت خارجا من البيت .



١٦

« تأخرت يا بنى ! لماذا تتأخر هكذا كل ليلة ؟! البيت خال على والصداع ... آه ... » .

بهذا استقبلتنى أمى فى هذه الليلة كذلك . فعدت أصرخ فيها :

ــ كنت أشم هواء الله !! .. هواء الله !!

فاستخذت فى فراشها ساكنة وقبضت على جبينها بين أصبعين ثم خرجت فخلعت ثيابى وعدت إليها أكثر هدوءا .

ــ أنت عصبى يا فؤاد .. كأن أحدا أغضبك فى الخارج .

فأجبتها بترفق لأننى أشفقت عليها :

ــ لا مطلقا يا ماما .. فكرى فى صحتك أنت .

ــ لم تعد هناك صحة .. رشدى وبدرية كانا هنا وانتظرا حتى يرياك فلما غبت خرجا . إن صحتها سيئة . كانت تغسل لنا ثيابنا فتركت

الغسيل وتقيأت مرتين .. الوحم .. ليساعدها الله .. متى يا رب أرى زوجة ابني تترك الغسيل هي الأخرى وتتقيأ ؟

فضحكت مغيظا فى وقت واحد :

ــ ليس هناك بعيد على الله ؟

فنظرت فى شك ثم قالت :

ــ إن زواجك ضرورة بالنسبة إلى أنا حتى بعد أن صرت مريضة . أنا لا أثق فى الخاطبات . وجيراننا أنت تعرف بناتهم . (وتنهدت أمى) حقيقة أنها صارت مشكلة . أيام .. أين ذهبت زكية ، وعنايات ، وألفت . وحتى الدميمة السوداء التى كان اسمها فتحية ؟ .. كل هؤلاء كانت عيونهن عليك .. أصبحن أمهات .. سبحانك يا رب .. وأين سميرة ؟ وبدرية بناتى ؟ آه يا بنى .. ما كان ينبغى أن تسير الأمور هكذا .. سيتهمنى الناس بأن هذا من تدبيرى . أنا مخلصة ويعلم الله . اسمع ... ماذا قالت لك الست جليلة ؟ اذهب إليها غدا واحصل منها على رد نهائى فأنت قد رقيت والحمد لله . وعلى كل حال فقد عرفت أن زميلتى التى تذهب إلى طبيب الأسنان عندها بنات . لا بد أن تتزوج قبل أن أموت .

وكنت مشغولا عنها ، كنت لا أزال فى غمرة الحوادث التى مرت بى فى الجيزة ، وتذكرت تاريخ ميلادى وأنا خارج من حجرة أمى فى طريقى إلى السطوح لألم الغسيل الذى نشرته بدرية وانصرفت . ونحن نذكر عدد سنوات عمرنا فى ساعات الخطر أو ساعات اللذة . ولمع الشيب على فودى وأنا أنظر فى مرآة الصالة وكأنما رأيته لأول مرة ، وكان الجو حارا . وقطع الغسيل على الحبال ساكنة لا تكاد تهتز ، والهدوء شامل يدفع إلى

التفكير . وديك عجوز وثلاث دجاجات يقرقرن فى الحظيرة بين الفينة والفينة . وأخذت أغدو وأروح على السطوح وأنظر إلى العمارة التى قامت خلفنا فبدا ظهرها كأنه جبل متاخم . ثم توقفت واتكأت على السور وفطنت إلى أن أمى ترقد فى الحجرة التى أقف فوق سقفها وتحسب الآن مقدرات مستقبلى فى قلق وخوف . وأن الست جليلة فى الجيزة تسترجع ما جرى بيننا فى أسف بالغ . بين هاتين المرأتين يترنح بندول الساعة التى تمثل سنوات شبابى ، فتنهدت ثم ذهبت لألم الغسيل .

على أننى فى الصباح رأيت الأمور أكثر تحسنا مما كانت عليه فى الليل ، خصوصا عندما تذكرت أن قلبا — أى قلب — قد خفق بحبى . ألا يوجد فى الدنيا سوى الأمهات ؟! ثم لماذا هذا كله ؟ هل يهبنا آباؤنا الحياة من أجل أنفسهم ؟ أو من أجلنا نحن ، أو بالنصف بيننا وبينهم ؟ فى هذه القضية وجهان مقبولان ، أما الثالث فهو غير مقبول ، فلا داعى لهبة يستردها أصحابها مرة أخرى بحيث لا تترك إلا الحسرة .

وفى حركة الترقيات الأخيرة انتقل رئيس المكتب وجاءنا رئيس جديد . وأخذت أنا الدرجة السابعة وأصبحت موظفا مرموقا ! وقبل عم سيد يدى فى ذلك اليوم وطلب منى الحلاوة وحثنى على الزواج لأتقى الله فى النصف الثانى من دينى !

وبعد ترقيتى إلى الدرجة السابعة ومجىء الأستاذ بدران رئيسا للمكتب وظهور الست جليلة واستتباب العلاقة بينى وبين هذين الإنسانين — قررت ذات ليلة وأنا مضطجع فى الفراش والنور خافت فى الصالة والليل ساكن فى الضاحية وكل كائن يتنفس بارتياح حتى صخور الجبل — قررت : أن الحياة اليوم يمكن أن تعاش . نعم . لقد أصبح فيها شىء !!

وكنت كلما هممت أن أذهب إليها أحسست بخجل وتقهقرت إلى الوراء ، وأمى تلح فى الذهاب كأن العروسة جالسة على الباب . وذات صباح وأنا جالس إلى جوار الأستاذ بدران فى المكتب جعل يحدثنى بصوته الخافت اللين فى فترة من فترات الهدوء ، عن ينبوع حب تفجر فى روحه أيام الشباب ثم ما لبث أن انطمس . ويوصينى الأستاذ بدران ألا أنام والحوادث مستيقظة على شاشة السينما ، بمعنى ألا أدخل إلى السينما لأستغرق فى النوم حتى لا يضحك منى الناس . يعنى أنه يجب أن أتمتع بالومضة الإلـٰهية الكبرى التى تدب فى حياة كل كائن ... بالشباب .

كنا فى مثل هذا الحديث حين انفرج الباب عن وجه عم سيد فرأيت على ملامحه أن أحدا بانتظارى فخرجت أكاد أتعثر ! فإذا بالست جليلة عند الباب الخارجى للإدارة .

وبعد أن سلمت لم يجد أحدنا داعيا لأن يناقش الآخر فى شىء . إن مجرد اللقاء يعنى تمام التفاهم والعفو ، وربما الاستعداد لتكرير الأخطاء . وكان لا بد أن نتحرك لنغيب عن أعين الموظفين والداخلين والخارجين . فسرنا فى غير اتجاه (لاظوغلى) إن كنت تذكره ، لأن عوامل قوية فى باطنى كانت تهيب بى أنه يجب أن أغير اتجاهى .

أما حالتها فى هذا اليوم فقد كانت حالة المرأة حين تصل إلى (قرار) معين رضيت عنه هى نفسها بصرف النظر عن كلام الناس . وفى هذه الأحوال تلبس المرأة ثوبين فى وقت واحد ، ثوب النمرة التى لا تغلب ، وثوب الهرة التى تريد الدفء ، فتبدو غالبة مغلوبة وقاهرة مقهورة .

ورأيت الست جليلة كذلك قد لبست قبل خروجها للقائى ما تعتقد أنها سترضينى به . واجتهدت فى ذلك اجتهاد الفقير يقدم أطيب ما لديه

للزائر الكبير فيثير فى نفسه الخجل والحرج . وخفق قلبى من أجلها خفقات قلقة حنونا . ورأيت الرحمة والحب والأغراض والشهوات كلها معباة فى جعبة نفسى فاستكبرت مصيبة الإنسان .

وتذكرت وأنا سائر إلى جوارها فى صمت قولها ذات مساء : « إن المساكين لا يلدون إلا مساكين » . ثم نظرت إلى صورتى وصورتها فى إطار الحوادث فرأيت أننا اثنان لم تخل قصة حبنا مما يثير الرثاء ، لأننى محروم يجرى إلى ذروة الشباب ، وهى محرومة استنفدت فى سبيل الرزق كل وسيلة مشروعة . فإذا كنا حبيبين فإن (إله الحب) لم يرمنا بسهم من الذهب كما تقول الأساطير ، بل ربطنا من أعناقنا بحبل من الليف ! وسحبتنى الست جليلة من أفكارى بقولها بصوت بطىء ونظرة بطيئة :

ـــ هل سببت لك ألما ؟

فسارعت أعلن :

ـــ أنت ؟ بالعكس .. ربما أكون أنا الذى قد آلمتك !

وابتسمت فى حذر ونظراتى تذكرها بالموضوع ، فأطرقت وقالت وهى سائرة :

ـــ هل نسيت (الأمانة) التى طلبتها منى ؟ . طبعا أصبحت تعرف أنك قادر على التصرف فى كل ما أملك !

فأعرضت عن الجواب وسألتها قائلا :

ـــ كيف حال نبيل وحال عزيزة ؟

ـــ آه ... خلقوا لى صداعا شديدا من كثرة سؤالهم عنك . (ثم استطردت كمن فطن إلى أنه نسى شيئا) لكن .. قل لى : ولماذا أحبك

الصغار كذلك ؟ الناس قد يخلقون حول حب الكبار أشياء ومنافع ، فماذا يقولون فى حب الصغار ؟

ــ وأنا أحبهم كذلك .

فقالت تعاتبنى :

ــ لماذا إذن لا تأتى إليهم . كلنا نحبك . صدقنى .

قلت بغير حماسة لكن بصدق ولعلى ذكرت أمى :

ــ وأنا أحبكم ... لكن . اذكرى أن لى أما وحيدة فى البيت تقلق علىّ إذا تأخرت عنها ، فضلا على أنها محتاجة إلىّ .

فظللتها سحابة حزن خفيف .

ــ تعال الليلة ... ولن تتأخر عندنا . ينبغى أن أتركك لترجع إلى مكتبك . أأنتظرك ؟!

فهززت رأسى موافقا لأننى لم أجد ريقى . وسمعتها تلقى على التحية وتستدير لتعود ، فظللت واقفا أرقب قامتها الضئيلة وهى تتأود وتلتفت مرة كلما خطت عشرين خطوة ، حتى كادت تغيب عن عينى .

وقبل أن أدخل المكتب قابلنى أحد الموظفين فى الصالة ونظر إلى بخبث وحيانى خمس مرات : « ازيك ، سلامات » وكفه تظلل عينيه كأنه يواريهما من الشمس ، فأيقنت أنه رآنى . وتركته ودخلت حيث جلست إلى جوار الأستاذ بدران ، كأن الأشياء المشروعة وغير المشروعة تريد دعامات من الخارج تستعيرها من الناس لينهض بناؤها فى نفوسنا . قلت :

ــ وبعد يا أستاذ ... هل كان حبك فى صدر شبابك ينبوعا محرما ؟ لا تؤاخذنى فى هذا السؤال !

فأجاب فى حنكة الشيوخ :

ــ نحن لا نختار التجارب . ولكن التجارب هى التى تختارنا . اسمع يا بنى يا فؤاد ... وددت لو كان عندى بنات فأزوجك إحداهن . أنت ولد ناصح طيب مستقيم . التجربة ، سيئة أو حسنة ، هى التى تختارنا لتقع علينا كما يختار الغراب أو البلبل قمة الشجرة . وبعد ذلك قل ، يا بخت ، يا نصيب . فقد تكون شجرة يقع عليها غراب وقد تكون شجرة يقع عليها بلبل . وفى اليوم الذى تختار فيه الأشجار نوع الطيور التى تحط عليها أو تعشش فيها ، نكون نحن قادرين على اختيار نوع معين من التجارب ...

ورنت ضحكة فى أحد أركان المكتب وهتف صاحبها يقول :

ــ تصوروا أننى ظللت ساعة عاجزا عن أن أجد موطن الخطأ فى الحسبة ، ثم اكتشفت أننى أقول بطريقة ميكانكية : ٨ × ٨ ب ١٦ !!

فسحبنا من عالمنا إلى عالم الأرقام . واستأنف كل منا عمله من النقطة التى توقف عندها .

* * *

وفى المساء نزلت أمى إلى العيادة وذهبت أنا إلى بيت الست جليلة . ولقينى الصغيران بحب حقيقى وتعلق الصبى بذراعى وأكد لى أنه برئ من لسعة العقرب ، وأنه لم يعد يلعب عند المخزن الملعون . ثم جريا نحو الداخل ورجعا وفى يد كل منهما طبق استنبت فيه قمحا وحلبة على قطعة من القطن ، وجعلا يشرحان لى طريقة الاستنبات باعتزاز من وفق إلى اكتشاف عظيم ، ونظرت إلى الأم بعين نصف مغمضة وعلى شفتها التى لا تخلو من الفتنة ابتسامة مؤكدة تقول بها : هل صدقت أنهم يحبونك ؟ كان فينا من يستنبت الحَب وكان فينا من يستنبت الحُب .

فلما خلا بنا المكان رجعنا إلى الماضى فأكملت لى قصة حياتها بقليل من الإسهاب : وجدت نفسها بعد فقد زوجها امرأة لا سند لها ، ومن أسرة كل يد فيها مشغولة بفم واحد ، وذهبت إلى الشركة تطلب مكافأة أو تعويضا ، فأخبروها أن الشكوك تحوم حول زوجها فرجعت دامعة العين . ومن الطبيعى أن يكون صاحب البيت قد انتظر وانتظر ، والبقال لم يعد يعطيهم شيئا وأنهم أصبحوا مهددين بالجوع .

وقبعت فى بيتها قليلة الحيلة تنتظر مصيرها المحتوم . ثم تخففت من الأثاث وسكنت فى حجرة ، ثم جمع لها فريق من أبناء الحلال من الموظفين والعمال فى الشركة مبلغا لا بأس به عن طريق التبرع ، ثم حكم لها القضاء بالتعويض بعد أن ثبت أن السائق لم يغرق وأن ثراء غير مناسب قد ظهر عليه .

واستأجرت هذا المسكن الصغير الرخيص المستقل ، لتكون بعيدة عن الناس الذين لم يرحمها منهم أحد أيام جوعها . ثم بدأت تستغل نقودها بالفائدة .

وسكتت لكنه خيل إلى أنها لا تزال تخفى شيئا . ألم يعترض طريقها ذئب أيام كانت محتاجة ؟ إن الجمال والحاجة أسوأ شيئين تقف بينهما امرأة ، والجميلة المحتاجة يعطيها الناس باسم الرحمة ليأخذوا باسم الفتنة حتى يحولوها إلى حطام .

وهممت أن أسألها لكننى لم أجد نفسى صاحب حق . ثم نفضت لها موجز قصتى ، وأعربت لها عن مخاوفى من أن تموت أمى فجأة فأحس أن البيت ، لا ، بل الدنيا أصبحت خالية على ، وأكدت لها أن حزنى عليها سيقتلنى بعد أن تموت .

فألفيت الست جليلة تكلمنى عن الحب ... عن ألوانه التى يزحزح

بعضها بعضا ، ويحل شيء منها مكان الآخر ، فقالت وهي تتمطى :
ـــ سيؤذيك الحزن يا حبيبي إذا تركتك أمك على هذا الحال .
(وتثاءبت وتنهدت ثم قالت بلين شديد) : تزوج .. ستنسيك الزوجة خصوصا إذا كانت ذات مأساة فقد أي إنسان . احذر أن ينطفئ عليك النور فجأة . آه .. عندما حدث لي ذلك تخبطت في الظلام !!

فنظرت نحو الباب لأحيد عن نظراتها وقلت :

ـــ كنت أريد أن أتزوج على طريقتي الخاصة .

ـــ ماذا تعني ؟

ـــ أعني أنني كنت أحب أن أتزوج على حب .

فسألت باهتمام لم تستطع إخفاءه :

ـــ هل أفهم من ذلك أنك لم تحب قبل ... أ ... قبل اليوم ؟!

ـــ لك أن تفهمي ما تشائين .

فهمست بخوف :

ـــ وأنا ؟!

وكانت في مكانها من الكنبة جالسة بشق متجهة نحوي وكوعها على المسند الخلفي والمسند الصغير بيني وبينها ، وأغنية عاطفية عذبة جديدة حارة تأتي من راديو عند أحد الجيران . والصبيان يكسران شيئا في المطبخ ، وقطة عسلية اللون تقف عند العتبة . فسألتها بدوري :

ـــ وأنت ؟!

ثم تنهدت أنا ونظرت إلى المسند ، فقالت بعينيها : ارفعه ... ارفعه بيدك . النساء لا يرفعن الستر إلا أول مرة ...

« آه .. لا أزال أذكرها .. لقد علمتني الكثير !! » .



١٧

وحتى هذه اللحظة لم نشتبك فى التجربة النهائية ...

وأعلنت أمى أن (عواطف) بنت زميلتها أعجبتها ، فقد خرجت أمى من العيادة وذهبت وزراتهم . ثم سكتت وعادت تسألنى : وهل قابلت الست جليلة ؟ فأخبرتها أنها على استعداد لأن تعطينا ، وأنه من الخير أن نسحب المبلغ منها قبل تقديم « الشبكة » بأيام فذلك أضمن لأنه دين ، فوافقت أمى وعادت تصف لى حال هذه الأسرة :

ــ من الغريب أن ظاهرهم غير باطنهم تدل ملابسهم على أنهم أغنياء ويدل بيتهم على أنهم عاديون . فى حجرة الصالون أثاث قديم الطراز .. وحتى قدمه لا يدل على العراقة . وفى أحد الأركان أزهار من الورق الرخيص أتلفتها أشعة الشمس . حال غريب لكن بنتهم جميلة ورب الأسرة (صائغ) غير معروف . أما العروسة فهى البنت الوحيدة بين أربعة من الصبيان يتعلمون كلهم . والأمر أمرك يا بنى ، وهأنذا قد خلصت ذمتى !

ولم يكن يخفى على وهى تكلمنى أن قلبها خال من الحماسة . وكنت أنا فى هذه الفترة مشغولاً (بكشف) جديد . ولم تكن الحياة فراغا كما كانت من قبل ، فقد علمنى الأستاذ بدران أشياء لم أكن أعلمها وفتح لى النوافذ على الهواء الطلق . زرته فى بيتـه الفـقير — أو أقـول المتوسط — فوجدته قد أعطى لكل مرفق جزءا من الدخل . ميزانية مرتبة بطريقة تدعو إلى الإعجاب ، لأن البيت جزء من الدولة (كما قال وهو يبتسم) وقد اختار الأستاذ نهاية أحد الممرات وأقام فيه حاجزا من الخشب كأنه (برفان) فتحولت الزاوية إلى ركن هادئ وضع فيه دولابين للكتب ومصباحا وكرسيا مريحا . وورقة من القطن المعقم ! كان يحولها إلى سدادات لأذنه إذا ارتفع الضجيج فى البيت .

وقال لى هذا الصديق : إن الأسف الشديد الذى لحقه والخلل الذى أصاب حياته هو زواجه الباكر .

وقهقه وهز رأسه فى عسر كأنما يثقله شيء :

« كان من الجائز جدا أن أكون فى غير هذا الموضع لو أن أصفاد الأسرة لم توضع فى رجلى . كان من الممكن أن أسافر إلى أوربا فأتعلم أى شيء أسعد به نفسى وأسعد به الناس . كل الحرف هناك قائمة على أساس . لو أننى عدت بشهادة فى تفسير الأحلام أو إخراج البقع من الملابس لكانت حالى فى المجتمع أرقى من ذلك بكثير » .

من أجل ذلك لم تر أمى تحمسا منى كما كانت تتوقع . فسألتنى ما إذا كان شيء قد طرأ على حياتى ؟ وأطرقت تنظر نحو كفيها فى حجرها :

— إننى يا بنى أخاف عليك !

قلت بطريقة من يريد أن يخفف خطرا :

ـــ حتى بعد هذه السن ؟! .. أوه .. إننى فى الثالثة والثلاثين يا ماما .

ـــ أعرف وذلك ما يؤلمنى . على أننى أراك أكثر مرحا وتفتحا . وخيل إلى أن حياتك أصبحت ترضيك . تمام .

وجاءت أم (عواطف) ترد لنا الزيارة فرأيت امرأة كثيرة الحركة شديدة التطلع . ألبسها زوجها قبل أن تجىء إلينا نصف الذهب الذى فى دكانه ، فظهرت بشكل قبيح . وكانت أمى تحاول جاهدة فى إكرامها ، ولو أن قلقا فى قرارة نفسها كان يرعش كفيها وهى تقدم لها الشربات . وتذكرت ـــ وأنا جالس بين المرأتين ـــ أيام فاطمة هانم ولياليها ونزوات بنتها زينب ... فخيل إلى أننى الحجر الذى يلمسه الحجاج ثم ينصرفون .

وتكلمت الضيفة كلاما كثيرا فلم تدع لأحدنا مجالا ، وتكلمت بإمارة وسلطان . وكانت تنظر إلى الغوايش وتعدها بعينها . فى كل ذراع (دستة) كأنها عروس النيل . ونظراتها تذيبنى وتكاد تزحلق أمى من على البلاط .

وقالت وهى خارجة ونحن نودعها إلى الباب :

ـــ تعالوا لزيارتنا .. لا بد من الغداء عندنا ذات يوم ... أنا يا أم فؤاد أجيد طبخ الكشك بالدجاج !

ونظرت إلى كفيها الناصعتين تبدى إعجابها بهما . ولم تر أمى فى ذلك فألا حسنا فقد قالت لى بعد انصرافها وكأنها تمازحنى :

ـــ انظر ... عندما تفقدنى يا فؤاد فلا تحزن .. ستجد كفين أكثر نظافة .. تجيدان طبخ الكشك بالدجاج !

فهززت كتفى ومططت شفتى .

* * *

ورأيت العشاق على النهر وأنا فى طريقى إلى الجيزة أكثر رونقا وجمالا ، ليس هذا بالضبط ما أريد أن أقوله ، بل كانوا فى هيأة مألوفة يؤدون عملا إذا توقف حدث خلل أو تعطل أو شلل فى جهاز الحياة . والماء تحت الجسر كأنه قهوة والناس يجتمعون فى كل بقعة على الشاطئ مزدحمون تحت الحر والأنوار .

وكنت على موعد معها . وكأنما كانت بانتظارى على مقربة من الباب ، فقد فتحت فى اللحظة التى لمست فيها الخشب . وكانت قد أوحت لى أن أجيء من طريق خلفى دوار ما دمنا سنكثر من اللقاء . فألف حول (الجراج) والمخزن . وإن كان الطريق مظلما فالحى كله لم يتمتع بالنور . ولأول مرة فى حياتى ذقت لذة التعثر فى سبيل القلب . وكنت ألقى ببصرى على الأبنية الكبيرة الموحشة الجاثمة فى الظلام فتحس روحى بخوف يخالطه خوف آخر لذيذ .. خوف من المجهول الذى أسعى إليه .

وعندما مررت على باب مخزن الخرق والورق ذكرت العقرب التى لسعت (نبيل) والليلة الأولى التى جلست فيها حقيقة إلى جوار امرأة . وأنفاسنا التى اختلطت على وجه الصبى .. وبقية القصة !

وعندما فتحت الباب بدت أنها تصغرنى بعشر سنوات . وكان الجو شديد الحرارة . فلبست ثوبا قصير الأكمام يبدو منه إبطها إذا رفعت ذراعها .. وكلامها البطيء كان متحيرا كالماء الراكد يعبث به الهواء . ولفتاتها البطيئة كأنما يخالطها النوم . والبيت ساكن .. والهرة العسلية ممدودة على الكنبة فى المدخل كأنما نامت وهى تتمطى . ومن الداخل نحو المطبخ فاحت رائحة « عود » طيب تكاد لا تغلب على نكهة

« التقلية » . على أن الرائحة التى كانت ساطعة فوق كل ذلك هى رائحة الأرواح حين يعذبها القلق فتجد نفسها مدفوعة إلى عمل ما يسميه الناس . « رذيلة » .

ودخلنا فجلسنا حيث تعودنا . وتحير كل منا وهو يختار الكلام . وصممت أنا على أن ألوذ بالصمت حتى تتكلم هى . فقالت بشبه خوف وهى تحمل رأسها على كفها وكوعها مرتكز على المسند الخلفى :

ــ كيف ترى صحتى ؟

ــ حسنة .

فاستطردت بنبرة لا تتغير . خافتة رتيبة تستدرجنى بها إلى غاية :

ــ صحيح ؟!

ــ صحيح !

ــ هذه هى أول مرة تكذب فيها على !

ــ لماذا ؟!

ــ لأننى أشعر أن صحتى سيئة ، إننى أعرف صحتى من لونى .. إنه يميل إلى السمرة عندما ينقص وزنى .

ــ وهل نقص وزنك ؟

ــ كثيرا .

ــ وهل لذلك سبب واضح ؟

ــ قلة النوم . اسمع . أريد أن أتفق معك على شىء .. هو أننى مسئولة أمامك وأنت غير مسئول أمامى . وافقت ؟ عال . كما أريد أن أقول شيئا آخر هو ...

ــ لماذا سكت ؟

ـــ ذكرت نبيل . وعزيزة . ليتنى ما تركتهما يذهبان . بدأت أقلق عليهما .

ـــ إلى أين ذهبا ؟

ـــ إلى الاحتفاء بوفاء النيل .

ـــ الناس هناك كثيرون فلا تخاف . لنعد إلى الموضوع .

ـــ نعم . كل شيء أقدمه إليك لا أقصد به إلا إسعادك .

فنظرت نحو الأرض ، وأنا أذكر قول الأستاذ بدران : « إن التجارب هى التى تختارنا كما تختار الطيور ذوائب الشجر » ثم أقبلت عليها بوجهى ورفعت المسند الصغير من بيننا وأخذتها بين أحضانى .. كانت لا تبغى إلا رضاى ، فقد رأيتها تمرغ وجهها فى حجرى وتقبض على كفى فى تحبب يكاد يكون عبادة ، ثم نهضت فجأة كأنها أوجست خوفا أو سمعت صوتا فاضطربت بدورى فأمسكتنى من ساعدى بيدها الصغيرة وهمست لى :

ـــ من الأفضل أن ننتقل إلى مكان آخر !

وعبرنا إلى حجرة لم أدخلها من قبل .. وقيمة الأماكن منزوعة من الأعمال التى تؤدى فيها . فأحسست أننى على أبواب العالم الذى تحدثوا عنه . عالم المرأة المهيب الرائع . وقفت على بابه ثمانية عشر عاما أرقب نوره وأشم عطره فى تردد وخوف وصمت . حتى أمسكت هذه المرأة بذراعى ودفعتنى برفق وشفقة وحب لا يسخر من الجهالات . وظلت تؤكد لى لمدة طويلة أنها تفعل ذلك من أجلى أنا ، بدليل أنه إذا رأيت فى قتلها لذة فإنها ستسلم روحها ليدى !

وعند انصرافى قابلنى على الباب نبيل وعزيزة . وتعلق الصبى بذراعى وطلب منى أن أدخل ، وشعرت بشيء من الخجل ، فلم أطق أن أرفع

بصرى إلى الأم . هناك ملذات تقوم على الضحايا كما تزرع الأزهار فوق المقابر . لكننى بعد أن ابتعدت لم أعد أذكر إلا النشوة . والمرأة التى قالت لى ذات مساء وأنا خارج من عندها أجر ذيول الخيبة : « سلم على ماما » وهأنذا أعيش حتى أراهن ألوانا .. كالخمر !! ألست جليلة تسرق العقل بسهولة . لكن .. أليس من الجائز أن تحولنى إلى سكير ؟! ماذا يحدث لو أنها دخلت فى دمى فلم أستطع أن أعيش بدونها ؟!

وعندما هبت النسمة الشمالية على وجهى فى ناصية الشارع المضىء نسيت هذه الأفكار . وذكرت شيئين اثنين فحسب : أحدهما أنه لا بد أن أسبح مع التيار وأدع التجارب تسقط على . والثانى أمى التى تجلس الآن بانتظارى . وربما كانت متعبة لا تستطيع القيام . ومحتاجة إلى لأناولها شيئا .

فهتفت بحنان : أماه .



١٨

وأحست أمى أننى غير ثائر ـــ فتناولت موضوع زواجى بتمهل وهدوء .. وكلما أحسست هما أو فرحا ذهبت إلى الست جليلة لأنثره بين يديها ثم أخرج خالى البال كيوم ولدتنى أمى ! ..

كانت ذكية العينين غير واسعة الثقافة أشبه بالشراع تمتلىء برغباتى وتندفع مع أهوائى حتى ترضى . وبعد ذلك ربما سحرت منى .. أحسست فى عشرتى لها أننى أقرأ كتابا مفيدا كتب بخط ردىء ، فإذا حللت لغز الخط انتشيت بحلاوة المعنى فهللت له وصفقت . ولذلك كنت أقبلها خمسا كلما اكتشفت فيها خصلة تعجبنى ..

وكانت تقول لى : يا حبيبى ـــ أحيانا ـــ ويا أخى ـــ كثيرا ـــ ويا بنى إذا كانت تدلى إلىّ بنصيحة ...

وكنت ألتقى بها فى الخارج فأشترى لها — بنقودها — الملابس لأنتقى الألوان التى تروق عينى أنا ...

وبدأت أبسط عليها شيئا من ظلالى فاقترحت أن تدخل (عزيزة) أحد المستشفيات فإن عظمها لين ومن الجائز أن تنصلح رجلها العرجاء : « حرام . غدا تكون فتاة يا سيدتى فلا تتركيها هكذا » فأجابت بأن ذلك جال فى خاطرها لكنها خافت أن تطبب الزجاج فيصيبه الكسر . ثم أذعنت لرغباتى .. كما تذعن دائما .. « آه ... لقد وجدت التى تقول : (حاضر) وتعطى ولا تأخذ فهربت إليها » .

وخرجت عزيزة من المستشفى أحسن حالا ، ثم مشت نحو التحسن ولم يعد صبيان الحارة يقولون لها : يا عرجاء . فعاشوا يذكرون لى هذا الجميل .

أما نبيل فكان يحبنى كأنه ابنى . وكنت أهدى إليه الكتب وأعلمه بعض الأحيان .

وأما الكمبيالات الشهرية فقد ظلت كما هى لكنها غلبتنى فى شىء واحد ، وهو أنها جعلت المبلغ بلا أرباح . واجتهدت أنا أن أؤدى إليها ما أشاء وما يرضينى لكن عن طريق الهدايا .

ولم يعد عم سيد يذهب إلى بيتها . قطعت العلاقة بينه وبينها عمدا بعد أن تعرفت علىّ ليبقى ستار معقول مسدلا على ما بيننا .

ولم أعد أعبأ كثيرا بالنهب والسلب الذى ترتكبه بدرية فى بيتنا نظير خدمات من الممكن أن يؤديها الغرباء بأقل ثمن . وكان زوجها رشدى يتبعها فى بيتنا كأنه ظل ، ولم أدخل عليه إلا وجدته يأكل ..

وشعرت أمي أنني أحب . أدركت أن لي عشيقة . لكنها آثرت الصمت . والأستاذ بدران يهديني إلى مواطن النور ويشرح لي معاني الجمال ويحدثني عما يقرأ ويصف لي تجارب شبابه . كان يدفعني بالمهماز كأنني حصان . حتى بدأت أقرأ وأفهم وأتمثل تجارب الناس (وتحول طبعي الهادئ إلى شاعرية كأنما ذهبت عنه الغفوة ودخلته الحياة دون أن يفقد سكونه الفطري . وسألت جليلة لماذا تحبني هي ؟ ألم تصادف قبل ذلك إنسانا يحمل نفس المزايا ؟ فابتسمت في خوف وقالت : هذه أول علامات التغير !

ولم تستطع أن تقدم الدليل على صدق نظريتها .

وذهبت مع أمي فزرنا أم عواطف ورأينا العروسة إتماما للمراسيم وعدت أنا فطلبت من أمي مهلة .

ثم حدث في نطاق الأسرة شيء غريب . هو أن بدرية ، لدت توأمين ذكرا وأنثى .

كان ذلك في بيتنا نحن وبين يدى أمي . فخرجت السيدة المسنة العجوز التي تكاد تكون مثقوبة الشدقين والعرق يتصبب من جسمها ، وكان (رشدي) جالسا يقزقز (لبا) بحركة آلية صرف ويهز خديه الكبيرين ، ورفع وجهه إلى السماء وشكر الله وداعبه مبتهلا أن يرزق العروسة بعريس والعريس بعروسة . ونظر إلى بجنب عينه وكأنه يعنيني .

لبست ثيابي وخرجت وانزوت أمي تغسل بعض الأواني بذراع كأنها جريد والغيظ في صدرها يكاد يتحول بكاء .

وأيقنت أن متاعب جديدة ستحل عندنا وأن أمي المسكينة ستتحول إلى مربية .. إنها محتاجة إلى علاج طويل . ستركب أسنانها الصناعية

وها هو ذا الشتاء على الأبواب وحالا سيهجم عليها الروماتزم . وسيقيم . (رشدى) وأولاده عندنا إقامة متصلة أو متقطعة .

هناك أربعون يوما تكون الوالدات فيها شبه عاجزات عن العمل ومحتاجات إلى العناية . آه .. يا أمى المسكينة .

وكانت أمى تخاف من عينى بدرية الحادتين القويتين اللتين تشبهان الزئبق . وقد قامت من الولادة عصبية سليطة لا تجد من تشتبك معه فى عراك ، واتكأت بكل قواها على مرافقنا الاقتصادية الضعيفة التى كانت فى الأيام الأخيرة أشبه بمريض فى دور النقاهة .

كان الصراخ يملأ بيتنا فى هذه الليلة . بنت بدرية ذات الثلاثة أعوام تلبس قبقاب جدتها وتجرجره على البلاط وتقع وتنهض وتبكى وتضحك ووجهها ملىء بالدمامل . والتوأمان الكريمان مقسومان بالعدل . الولد فى حجر أمه والبنت فى حجر جدتها . يبكى واحد منهما على الأقل إذا لم يتسابق الاثنان فى البكاء ويشاركهما (رشدى) ولكن بالقهقهة !

قلت فى نفسى ليلتئذ : لعل بدرية تنسجب بالنيابة عن الجميع . وخرجت أشم هواء الله ، وهواء الله البليل العليل فى نواحى الجيزة .

وجدت (نبيل وعزيزة) جالسين يكتبان وعلامات الفكر والقلق تبدو على وجه الأم . قلت لها :

ـــ هل جئت لأبيع الهموم فى سوق الأحزان ؟! ما بالك مكتئبة ؟ .. قد كنت أرجو عونك لأننى متضايق !

ـــ عندى كل ما يرضيك .

ـــ مظهرك حزين !

ـــ لا تهتم .

ـــ يجب أن أعرف !

ـــ قبل أن تتصرف مباشرة ستعرف أنه أمر تافه .

وتمايلت أعناق الصغيرين للنوم بعد مدة وجعلت أقص عليها همومي والغضب ظاهر في نبراتي . وبعد أن فرغت نظرت إلي بعين حنون ثم سألتني :

ـــ أتريد أن تعرف رأيي ؟ إنني أم ! وعندما تصبح أبا ستعرف بدورك أن الأضرار التي نلحقها بأبنائنا بلا قصد تدفعنا إليها قوة ترفع الجبل !

وسكتت واختنقت بالبكاء ثم أخرجت من صدرها منديلا مسحت به دموعها وأودعته صدرها من جديد (لقد ذكرت أنها تغش ولديها) !!

قلت في نفسي : إننا نحتفظ بدموعنا كما نحتفظ بآلامنا .. إننا مساكين . وأخشى أن نلد مساكين كما قالت هذه المرأة . والهموم تدفعنا إلى التماس الملذات ، تفعل بأعصابنا ما يفعله السم .. تماما ، كأن شجرتيهما تتغذيان بجذر واحد !

أخذتها بين أحضاني ونحن جالسان . قالت :

ـــ لا مفر ؟!

ـــ إنني مهموم !

ـــ ستنسى همومك ... أنا لا أطيق أن أراك حزينا .. آه !!

لما نمت ليلتئذ أحسست أنني لا أزال في أحضان الست حليلة .. وأن كفها الصغيرة تفتل شعر ناصيتي كما كانت تفعل باستمرار . وأن هواء خفيفا ينفذ من تحت مصراع الشباك فيقلق دفء الحجرة . وأنني لست في سريري . وأن الكلب الذي ينبح في حديقة بيتنا الخربة ليس إلا الكلب الشرس الذي يربط وحده في مخزن الخرق والورق .

وكنت ألتقى بها فى الخارج فأشترى لها — بنقودها — الملابس لأنتقى الألوان التى تروق عينى أنا ...

وبدأت أبسط عليها شيئا من ظلالى فاقترحت أن تدخل (عزيزة) أحد المستشفيات فإن عظمها لين ومن الجائز أن تنصلح رجلها العرجاء : « حرام . غدا تكون فتاة يا سيدتى فلا تتركيها هكذا » فأجابت بأن ذلك جال فى خاطرها لكنها خافت أن تطبب الزجاج فيصيبه الكسر . ثم أذعنت لرغباتى .. كما تذعن دائما .. « آه ... لقد وجدت التى تقول : (حاضر) وتعطى ولا تأخذ فهربت إليها » .

وخرجت عزيزة من المستشفى أحسن حالا ، ثم مشت نحو التحسن ولم يعد صبيان الحارة يقولون لها : يا عرجاء . فعاشوا يذكرون لى هذا الجميل .

أما نبيل فكان يعجبنى كأنه ابنى . وكنت أهدى إليه الكتب وأعلمه بعض الأحيان .

وأما الكمبيالات الشهرية فقد ظلت كما هى لكنها غلبتنى فى شىء واحد ، وهو أنها جعلت المبلغ بلا أرباح . واجتهدت أنا أن أؤدى إليها ما أشاء وما يرضينى لكن عن طريق الهدايا .

ولم يعد عم سيد يذهب إلى بيتها . قطعت العلاقة بينه وبينها عمدا بعد أن تعرفت علىّ ليبقى ستار معقول مسدلا على ما بيننا .

ولم أعد أعبأ كثيرا بالنهب والسلب الذى ترتكبه بدرية فى بيتنا نظير خدمات من الممكن أن يؤديها الغرباء بأقل ثمن . وكان زوجها رشدى يتبعها فى بيتنا كأنه ظل ، ولم أدخل عليه إلا وجدته يأكل ..

وشعرت أمى أننى أحب . أدركت أن لى عشيقة . لكنها آثرت الصمت . والأستاذ بدران يهدينى إلى مواطن النور ويشرح لى معانى الجمال ويحدثنى عما يقرأ ويصف لى تجارب شبابه . كان يدفعنى بالمهماز كأننى حصان . حتى بدأت أقرأ وأفهم وأتمثل تجارب الناس (وتحول طبعى الهادئ إلى شاعرية كأنما ذهبت عنه الغفوة ودخلته الحياة دون أن يفقد سكونه الفطرى . وسألت جليلة لماذا تحبنى هى ؟ ألم تصادف قبل ذلك إنسانا يحمل نفس المزايا ؟ فابتسمت فى خوف وقالت : هذه أول علامات التغير !

ولم تستطع أن تقدم الدليل على صدق نظريتها .

وذهبت مع أمى فزرنا أم عواطف ورأينا العروسة إتماما للمراسيم وعدت أنا فطلبت من أمى مهلة .

ثم حدث فى نطاق الأسرة شىء غريب . هو أن بدرية ، لدت توأمين ذكرا وأنثى .

كان ذلك فى بيتنا نحن وبين يدى أمى . فخرجت السيدة المسنة العجوز التى تكاد تكون مثقوبة الشدقين والعرق يتصبب من جسمها ، وكان (رشدى) جالسا يقزقز (لبا) بحركة آلية صرف ويهز خديه الكبيرين ، ورفع وجهه إلى السماء وشكر الله وداعبه مبتهلا أن يرزق العروسة بعريس والعريس بعروسة . ونظر إلى بجنب عينه وكأنه يعنينى .

لبست ثيابى وخرجت وانزوت أمى تغسل بعض الأوانى بدراع كأنها جريد والغيظ فى صدرها يكاد يتحول بكاء .

وأيقنت أن متاعب جديدة ستحل عندنا وأن أمى المسكينة ستتحول إلى مربية .. إنها محتاجة إلى علاج طويل . ستركب أسنانها الصناعية

وها هو ذا الشتاء على الأبواب وحالا سيهجم عليها الروماتزم . وسيقيم . (رشدى) وأولاده عندنا إقامة متصلة أو متقطعة .

هناك أربعون يوما تكون الوالدات فيها شبه عاجزات عن العمل ومحتاجات إلى العناية . آه .. يا أمي المسكينة .

وكانت أمي تخاف من عيني بدرية الحادتين القويتين اللتين تشبهان الزئبق . وقد قامت من الولادة عصبية سليطة لا تجد من تشتبك معه فى عراك ، واتكأت بكل قواها على مرافقنا الاقتصادية الضعيفة التى كانت فى الأيام الأخيرة أشبه بمريض فى دور النقاهة .

كان الصراخ يملأ بيتنا فى هذه الليلة . بنت بدرية ذات الثلاثة أعوام تلبس قبقاب جدتها وتجرجره على البلاط وتقع وتنهض وتبكى وتضحك ووجهها ملىء بالدمامل . والتوأمان الكريمان مقسومان بالعدل . الولد فى حجر أمه والبنت فى حجر جدتها . يبكى واحد منهما على الأقل إذا لم يتسابق الاثنان فى البكاء ويشاركهما (رشدى) ولكن بالقهقهة !

قلت فى نفسى ليلتئذ : لعل بدرية تنسجب بالنيابة عن الجميع . وخرجت أشم هواء الله ، وهواء الله البليل العليل فى نواحى الجيزة .

وجدت (نبيل وعزيزة) جالسين يكتبان وعلامات الفكر والقلق تبدو على وجه الأم . قلت لها :

ــ هل جئت لأبيع الهموم فى سوق الأحزان ؟! ما بالك مكتئبة ؟ .. قد كنت أرجو عونك لأننى متضايق !

ــ عندى كل ما يرضيك .

ــ مظهرك حزين !

ــ لا تهتم .

— يجب أن أعرف !

— قبل أن تتصرف مباشرة ستعرف أنه أمر تافه .

وتمايلت أعناق الصغيرين للنوم بعد مدة وجعلت أقص عليها همومى والغضب ظاهر فى نبراتى . وبعد أن فرغت نظرت إلى بعين حنون ثم سألتنى :

— أتريد أن تعرف رأيى ؟ إننى أم ! وعندما تصبح أبا ستعرف بدورك أن الأضرار التى نلحقها بأبنائنا بلا قصد تدفعنا إليها قوة ترفع الجبل !

وسكتت واختنقت بالبكاء ثم أخرجت من صدرها منديلا مسحت به دموعها وأودعته صدرها من جديد (لقد ذكرت أنها تغش ولديها) !!

قلت فى نفسى : إننا نحتفظ بدموعنا كما نحتفظ بآلامنا .. إننا مساكين . وأخشى أن نلد مساكين كما قالت هذه المرأة . والهموم تدفعنا إلى التماس المللذات ، تفعل بأعصابنا ما يفعله السماد بشجرتين تماما ، كأن شجرتيهما تتغذيان بجذر واحد !

أخذتها بين أحضانى ونحن جالسان . قالت :

— لا مفر ؟!

— إننى مهموم !

— ستنسى همومك ... أنا لا أطيق أن أراك حزينا .. آه !!

لما نمت ليلتئذ أحسست أنى لا أزال فى أحضان الست حليلة .. وأن كفها الصغيرة تفتل شعر ناصيتى كما كانت تفعل باستمرار . وأن هواء خفيفا ينفذ من تحت مصراع الشباك فيقلق دفء الحجرة . وأننى لست فى سريرى . وأن الكلب الذى ينبح فى حديقة بيتنا الخربة ليس إلا الكلب الشرس الذى يربط وحده فى مخزن الخرق والورق .

وهزتنى فى الصباح الباكر كف حذرة توقظنى برفق ، فلم أسمع بكاء أحد التوأمين ولا بكاء كليهما . فإذا بى أجدنى لا أزال فى فراش الست جليلة . غلبنا النوم ففقدنا وعينا ! وكان نور الفجر يتسلل من الأبواب . والكلب ينبح بكثير من الطمأنينة فى مخزن الخرق والورق . وصديقتى منفوشة الشعر مذعورة العينين تعض ظهر سبابتها المثنية وصوت منغم ممطوط ينادى وفيه آثار النوم أول نداء ارتفع فى الحارة :

ـــ « المدمس ال م ى د ا م ى س .. حلو .. » .

* * *

فى البيت عندنا كان القلق والصمت مخيما على المرأتين : بدرية الشاحبة النفساء وأمى المخلعة الأسنان الغائرة العينين والخدين .

أما (رشدى) فقد خرج يسأل فى (استقبال الحوادث) فى كل مستشفى قبل أن يذهب إلى مدرسته .

وعندما عبرت العتبة الخارجية نبح الكلب فانشغلت برهة خاطفة بالتفريق بين صوته وصوت الذى كنت أسمع نباحه طول الليلة الماضية .

وانفجرت أمى باكية حين رأتنى ، ونظرت بدرية باحتقار كأنها تقول لى أنا أعرف أين كنت ! وتركتنا ودخلت إلى توأميها . ثم تهاوت أمى على كنبة ولم تتكلم . وكان من الضرورى أن أقول لها كلمة فجعلت أفكر فى ماذا أقول وأخيرا نطقت .

ـــ لا تحزنى يا ماما .

فانفتحت :

ـــ علام أحزن ؟! .. أنا أعلم أنك كنت تشم هواء الله .. لكن .. أليس من حق البهائم الذين ينتظرونك أن تخبرهم مقدما بأنك ستبيت تشم هواء الله طول الليل ؟!

فحملقت وملأ الغضب صدرى وسخنت أذناى ثم صرخت فيها :

ـــ أنا أعلم أننى مخطئ . لكن الأمر كان خارجا عن إرادتى .. سهرت عند صديق فغلبنى النوم عنده .. هل من الضرورى أن أظل تحت الوصاية طول عمرى .. ما هذا العذاب ؟ .. ينبغى أن تكلمونا بطريقة تناسب عمرنا .. إننى ابن أربعة وثلاثين إن زدت كلمة واحدة فلن أدخل هذا البيت الذى عمه الخراب ..

ثم جعلت ألهث كأننى جريت كيلو .. وأخذت أمى . وبدا وجهها طويلا وأنفها كبيرا كأننى أراها فى مرآة خادعة . وشرعت أضع رجلا على رجل وأنزلها وأخبط كفا بكف وأمصمص . وأهز رأسى فى كل اتجاه .. وهى .. ساكنة مذعورة .

وأخيرا ألقت فى وجهى كلمة . قالت بصوت خافت :

ـــ كنت عند امرأة .. أغبى النساء تعرف ذلك !

وخرجت من الحجرة .

ومن الغريب أننى ظللت أزعق كأنها أمامى . كانت الشحنة القديمة تريد أن تتزحزح لتخلى مكانها لتجارب الحاضر . لكأن باطننا يطرد بعض ما فيه ويفيض به كما تفعل العيون . قلت :

ـــ كنت عند امرأة .. هذا صحيح .. ماذا تريدون ؟ليس لأحد عندى شىء . إنكم لا تشبعون . لقد وهبت حنانك لكل الناس إلا أنا .. لا تلومينى إذن .. إن كنت أمى فانظرى إلى مصالحى .. سأترك لك العاصمة .. سأنتقل إلى الصعيد ..

ثم انخرطت فى البكاء .

وهبط على البيت سكون كالذى يهبط على الليل بعد انقطاع الطلقات

فيه ، فسمعت خفق قلبى . ودخل (رشدى) من الخارج وعليه علامات الإرهاق والقلق ووقف أمامى مفتول الكرافتة طويل الذقن محمر العينين منفوخ الخدين وقال بصوت خائف :

ـــ قلقنا عليك !

فنظرت إليه نظرة زاجرة ففر من أمامى . وتقدم الوقت بعد أن خرج رشدى إلى المدرسة وفات ميعاد ذهابى إلى عملى . فدخلت على أمى طويلة رفيعة كأنها تمشى على خشبتين وعلى خدها آثار دمعها ، ثم جلست جوارى مربوكة لا تعرف كيف تبدأ ...

وتحسست كاهلى بكفها فلم أنظر إليها فخرت على ركبتى تقبلها فشددت شعرى وأنا أجأر بالبكاء لأننى تذكرت المرأة التى قضيت الليل فى حضنها وكيف كانت تمرغ وجهها فى حجرى وأحسست أننى بينها وبين أمى كخيط من الحرير تجذبنى الأم باسم البر وتجذبنى الأخرى باسم الحاجة ، وأنا بين كفيهما عرضة للتلف !!

سمعت صوتها حنونا :

ـــ ولدى ... سأموت بين يديك حالا إن لم تكف عن البكاء . هل عددتنى أسوأ من حيوان ؟! إن الكلبة لم تأكل جروها قط !

قلت لها بصوت متهدج والدمع فى عينى :

ـــ كلامك هذا هو الذى يبكينى . إن كنت تحبينى فاسكتى !

ثم ارتميت على صدرها كأنى أفتش عن ثديها بكف طفل ...

ـــ آه .. يا ربى .. ضمينى إليك يا أمى .. واغفرى لى ! لن أخرج من البيت ما لم يتبعنى رضاك !!

* * *

وشكوت للأستاذ بدران ما أقاسيه من عناء فشجعنى على الأمر: « إنه يا بنى الحرارة الطبيعية التى يجب أن تتوفر ليتحول الطفل إلى رجل .. لا تحزن » .

وفى الليل لم أخرج من البيت ، وكأنما رأيت الوقت ملكا لأمى وليس من حق إنسان آخر أن يشاركها فيه .

وأوى (رشدى) وأسرته إلى غرفتهم عندنا . وجلست أسامر أمى كما كنا نفعل . وكنت أرى نبض قلبها فى نحرها . إن جرحى الأعداء لا يجوز أن نجهز عليهم ، فما بالك بمثل هذه المرأة ؟

قالت أمى :

ـــ سأكلمك بصراحة . هل تظن أننى متعمدة شيئا ؟

لقد حدث أخيرا أمر لم أخبرك عنه :

قبل انصرافى من عيادة الطبيب منذ ليال جلست إحدى المريضات تجاذبنى أطراف الحديث ، وتبين لى أنها تعرف أم عواطف . وتسلسل الحديث وامتد فأخذت تمدح أخلاقها وطباعها ثم قالت فجأة : إنهم كانوا أثرياء لولا القضية الملعونة التى أضاعت مالهم (وسألتها طبعا عن هذه القضية . فعرفت أن زوجها كان قد اتهم فى (تزييف نقود) ...

ـــ وبرئ ؟

ـــ بل وسجن !

قلت باشمئزاز :

ـــ دعينا من هذا الحديث .

ـــ بنت الحلال فى انتظار ابن الحلال ... إننى أدعو لك .. أحلامى تنبئنى بأنك سعيد . بدرية طماعة ولا أستطيع دفعها . هل أطردها كلما

سحبت زوجها وجاءت ؟ قلب الأم يا فؤاد لا يقوى على القسوة . وعندما تكون أبا ...

فأكملت العبارة فى نفسى بما قالته الست جليلة ليلة أمس :

« ستعرف بدورك أن الأضرار التى نلحقها بأبنائنا بلا قصد تدفعنا إليها قوة ترفع الجبل » ثم قلت لأمى :

ـــ لا تظنى أننى ساخط على حياتى .

فأجابتنى بحياء :

ـــ أنا أعرف أنك غير ساخط . لكن ... ليست هذه هى الطريقة !

ـــ إن الوقت لم يفت بعد .

ـــ تزوج . حاول أن تعملها ولو دون استشارتى . لقد أصبحت عاجزة عن أن أتكفل بالأمر . قل لى : إذا كنت تحبها .. فلماذا لا تتزوجها ؟!

وصرفت عنى وجهها لتشجعنى على الإجابة فوجدت نفسى فى حرج ماذا أقول ؟؟ أجبتها أخيرا ووجهى إلى ناحية غير ناحيتها :

ـــ إنها لا تصلح !

فسألتنى ووجهها لا يزال منصرفا عنى :

ـــ لماذا ؟

فأجبتها ووضعى لم يتغير :

ـــ لأسباب من العسير على أن أحصيها .

فحولت وجهها إلى وهتفت والقلق فى عينيها الغائرتين :

ـــ تزوج قبل أن أموت . إننى خائفة عليك !!

١٩



بدأت ألسنة الناس تنوشها وأحزنها ذلك (وهذا هو ما أخفته عنى) لكن الست جليلة أصبحت لا تبالى بما يقولون . وألف الصبيان وجودى بينهما . وكانا ينظران إلى وجهينا فى بعض الأحيان ثم ينسحبان إلى الخارج .

وتمسح بى عم سيد فى الإدارة ذات يوم وأخبرنى بطريقة مسمومة أن الست جليلة وصل إليها قدر من المال عن طريق (الوصية) وبهذا المال بدأت أعمالها التى أعرفها .

وأزعجنى هذا الأمر وأقلق بالى وأخفيته بدورى عنها مدة غير قصيرة . وقد كنت فى الحقيقة أخاف أن أفقدها . وأصبحت عاجزا أن أتصور الحياة خالية من ظلها :

ــ هل من الممكن أن يعيش أحدنا دون الآخر ؟

فأجابتنى قائلة وكان ذلك فى نهاية وقت عددناه من أسعد الأوقات :

ـــ سألت نفسي هذا السؤال ألف مرة ، وأنت حاضر وأنت غائب ، لكنني فررت من الجواب .

ـــ لماذا إن الإجابة عنه لا تخلو من الطرافة !

وابتسمت وهززت رأسي واستطردت :

ـــ ماذا يحدث فى الدنيا لو مر عام كامل ولا أدخل الجيزة ولا أدور حول (الجراج) والمخزن . ولا أراك تقبلين أنامل كفى . وأحصى همومي وحيدا كأنني أسير . وأبحث من جديد عن قلب جديد . وأمر على بيتكم وأتطلع إلى وجوه سكانه بعد أن خرجتم منه . وأتخيل أى فراش نصب فى هذه الغرفة وأى ناس ناموا فيها . وأنك عشت بعدى أرضا محرمة على كل إنسان أو أرضا حلالا يعبرها رجل غيرى ...

فدفعتنى فى صدرى بقبضتها لأفيق كأننى مصروع على وشك أن تأخذه النوبة وقالت لى :

ـــ ما هذا الذى تقوله ؟!

ولأول مرة رأيت ملامحها متغيرة . وفطنت فجأة ـــ ولأول مرة أيضا ـــ إلى انتفاخ خفيف تحت عينيها ، وشعرات بيض تلمع فى أماكن مختلفة خصوصا فى مجرى مفرق الشعر .

ـــ هل تضايقت مما أقول ؟ أليس هذا كله جائزا ؟! إن الزمن يفرق حتى بين الأزواج !

فهمست :

ـــ حتى بين الأزواج !! .. إنك على حق ! إن أحلامنا أكثر من أحلامكم . نحن نساء !

وتبينت أنها غارت من امرأة مجهولة لم تقع عليها عينها بعد . كما فعلت أمى ، تلك التى أحزنها أن تقول امرأة ظننا أنها ستكون (حماتى) : « إن يديها تجيدان طبخ صنف تجيده أمى » .

واستحال بطؤها إلى تبلد مريع . وظهر ضعف الحيلة والاستسلام فى نظرتها وجلستها . فدفعتها — مداعبا — بقبضة يدى فى صدرها كما سبق أن فعلت بى وقلت لها :

— فى ماذا تفكرين ؟!

لكنها كانت فى لجة أعمق من أن تدركها ذراعى فلم أستطع أن أستخلصها . فسكت . قالت بعد فترة لتسترد رضاى :

— هل غضبت ؟ أنت لا تعرف ماذا سيصيبنى إن فقدتك . ولا تستطيع أن تعرف بماذا سأذكرك إذا ما ابتعدت عنى ؟

— بذكرياتى .

فلمعت عيناها بنظرة مخيفة . وقالت وهى تبتسم ابتسامة من ظفر بغريمه :

— لا !! .. غلبتك !

فهززت كتفى لأننى لم أفهم . فاستطردت :

— أخذت منك تذكارا عزيزا . أخذت صورتك .

— لم يحدث !

— سرقتها منك وأنت غافل .

— وهل يجوز هذا ؟

— حدث بلا قصد .

— وكيف ؟

فاندفعت فجأة :

ـــ من المحتمل .. أن .. يكون فى بطنى ..

فصرخت :

ـــ ماذا ؟!

فأجابت بهدوء بالغ :

ـــ ماذا ؟ .. أليس هذا نتيجة طبيعية لما نعمل ؟!

فتراقصت أمامى على بياض الحائط المربع حوادث رأيتها على الشاشة . فيها فتاة فرنسية غنية ولدت من عشيقها الفقير غلاما فهربته عند فتاة ريفية عجوز ، وكان كل من الأبوين يذهب ليزوره خلسة ويعود . وقد أبكت مأساتهما كل عين .

فبدت على وجهى الربكة . فسألتنى :

ـــ ألا تحب أن يكون لك ولد ؟

ـــ ستذهبين عقلى ! .. أحب .. لكن ليس بهذه الطريقة !

ـــ هذا لأنه منى ؟!

ـــ بل لأننا لسنا زوجين .

ـــ هيه !! ... ولا يعقل أن نكون زوجين ... إذن فكيف نتصرف فى هذا يا عزيزى ؟!

ـــ لا أدرى !

ـــ اشتركنا فى الهناء ، فلنشترك فى المسئولية .

ـــ تصرفى كما يتصرف النساء !

ضحكت حتى كادت تستلقى على ظهرها وقالت وعيناها تدمعان من الضحك :

ـــ ولماذا لا تتصرف أنت كما يتصرف الرجال ؟! .. آه أيها الطفل الصغير .. إنني أسخر منك .. كنت أريد أن أسبب لك شيئا من الأحزان التي ستتركها لى فى المستقبل .

وجمعت أصابعى بين كفيها . وأخذت تلقى عليها قبلة ، ثم تنظر إلى نظرة .. على التوالى !

* * *

قلت فى نفسى ذات ليلة وأنا راقد فى فراشى :

لماذا لا يكون ما سمعته أمى عن أسرة (عواطف) كذبا فى كذب ، وتوقفت أفكارى فلم تخط خطوة إلى الأمام لأن صديقتى كانت تذيقنى من الحياة ألوانا كثيرة .

ثم سألت نفسى : ولماذا لم أسأل الست جليلة عن حكاية (الوصية) التى ألقى إلى بخبرها عم سيد بطريقة تثير الشكوك ؟

ثم سألت نفسى : ولماذا يتزوج الناس ؟! أهم يتزوجون لينسلوا أم ينسلون لأنهم تزوجوا ؟

وقهقهت وأنا فى فراشى كأنما أعجبنى السؤال . وتنهدت وتمططت لأجيب عنه بلذة ، وكانت أمى فى الحجرة الأخرى يفصل بينى وبينها الجدار ، تعانى سعالا وأرقا وأوصابا أخرى وظللت أديره فى خاطرى والكلب ينبح فى الحديقة التى شاخت أشجارها فلم يبق لها فائدة إلا الظل والخضرة .

لماذا يتزوجون ؟! ..

إن ذكرى أبى لم تزد شيئا ولم تنقص شيئا بوجودى . كل ما استفاده منى ـــ وراء الثرى ـــ أننى أدون اسمه بعد اسمى فى كشف المرتبات واستمارات الحسابات . فهل هذا خلود ؟!

من الأفضل إذن أن نقول : إن الناس ينسلون لأنهم تزوجوا .. إذن فوضعي مع الست جليلة وضع مقبول مادمت لم أخلد أبي وما دام الناس ينسلون لأنهم تزوجوا ..

ونبح الكلب لأن السكير الذي يمر كل ليلة أمام السور في نفس الميعاد مر في هذه اللحظة ... فجعلت أسأل نفسي ... ولماذا يسكر الناس ؟ .. ثم قلت : كما كان أبي يسكر ..

وظللت أردد الجواب حتى رحت في النوم .

ثم سألت الست جليلة عن حكاية الوصية وارتاعت كأنني كشفت عنها سترا لم أكتشفه من قبل . ثم قصت عليّ القصة . ثم أعرضت عنها وهجرتها ثلاثة أسابيع ، استطعت خلالها أن أتمثلها وأتصورها بوضوح . ثم تصالحنا فقالت لي ليلتئذ . إن تخيلاتك تتعبك أيها الصبي ... هل عدت ؟!

* * *

لما ضاقت الحال على الست جليلة بعد وفاة زوجها كان من الممكن جدا أن تدخل سوق البغايا ، لكنها صبرت على الجوع حتى قيض الله لها فرصة عابرة ، ولو أن بعض الرشاش أصابها بسببها . كان على مقربة من الحي الذي كانت تسكنه آنذاك ، طبيب عجوز في شقة كبيرة من بيوت الأوقاف ، اتخذها عيادة وسكنا . وكان من الذين احترفوا الطب بالممارسة ، وقيل إنه عمل طبيبا في الجيش ثم أحيل إلى المعاش منذ خمس سنوات ، يخرج وقت الصباح أو العصر نظيفا أنيقا نحيف العود لامع الحذاء عليه قميص أبيض منشى ورباط عنق أسود لا يتغير وعلى عينيه منظار رقيق في شفافية فقاعة الصابون . وينقل خطاه بحذر كأنه يخشى أن يجرح الأرض .

ولم يكن يزوره فى العيادة إلا أفراد قلائل . يفتح لهم الباب بنفسه ويحملق فيهم بعينه الضعيفة أو يفتح لهم الخادم — إن وجد — لأن الطبيب عاش عازبا طول العمر . لم يكن وجهه مريبا . كنت تتخيله سليل عز . يعتزل الناس فى ترفع لا يخلو من الأدب والعطف والشفقة . سطا عليه اللصوص ذات ليلة فوجدوا كل شيء فى الشقة عتيقا إلا الملابس والساعة الذهبية . ومنذ تلك الليلة ربط كلبا ضخما وراء بابه ، وعاش مدة طويلة بلا خادم . وكان يفتح الباب بنفسه للمرضى النادرين الذين يذهبون إليه ، ويحملق فيهم وهو يدنى وجهه منهم . ولما شعرت الست جليلة بإعياء شديد وشربت من الزرنيخ والحديد ثلاث زجاجات وظلت تدوخ كما هى — ذهبت إلى هذا الطبيب تطرق بابه :

— أكاد أسقط من الإعياء أثناء سيرى يا سيدى ، دواء المستشفيات لم يجدنى نفعا وأنا امرأة فقيرة .

— سأرى بنفسى .

وأدرك أن انحطاط قواها ناشئ من سوء التغذية ، وعاد يحملق فيها بعينيه اللتين لم تخلوا من الصفاء على الرغم من الشيخوخة . ثم سألها :

— ماذا يشتغل زوجك ؟

فأجابت متلعثمة :

— لا شيء ... مات !

— وكيف تعيشين ؟

— لا أدرى .. لكننى أعيش ؟

— هل لك أولاد ؟

— صغار . ولد وبنت .

ـــ يعيشون بنفس طريقتك ؟

ـــ طبعا .

ـــ وأين تسكنين ؟

فأشارت بذراعها ممدودة إلى الحى الذى لا يقع بعيدا جدا عن المكان . الحى الذى يشبه الخلية ... لكنها مليئة بالذباب والأوحال .

قال الطبيب بعد فترة تفكير :

ـــ تشتغلين عندى ممرضة ؟

ـــ أشتغل .

ولبست ثيابا نظيفة وعادت جميلة وأصبحت رشيقة فى (المريلة) البيضاء . وكان ولداها يذهبان فيلعبان فى الشقة الواسعة مادام المكان غير مزدحم بالناس ... وتطوعت بتنظيف المكان فى أوقات متقاربة ، ثم بدأت تطبخ للطبيب ، ثم أخذت ترعى بقية شئون البيت ، ثم استحالت إلى أنيسة ، ثم أغدق عليها من ماله وقال لها ذات مساء :

ـــ ألا تعرفين لماذا أحبك ؟ لأن طبعك الوديع الساكن يا بنيتى يذكرنى بالفتاة الأولى التى أحبتنى فى شبابها ...

وتنهد ثم قام إلى خزانة خاصة فأخرج منها صورة لشابة عليها ملابس من طراز صار قديما ، واستطرد الطبيب :

ـــ كثيرا ما أحرقت قلوبنا بنات ، وقد تسببت لها فى الموت . دفعتها إلى أن تحرق نفسها ... أما بقية القصة ... فسيظل هنا (وأشار إلى صدره) ...

وعاشت معه الست جليلة عامين اثنين كانت فى الحقيقة كل شىء له ، وقد خصها بأشياء كثيرة ... وربما خصته هى بأشياء ... ولما مرض فى

أيامه الأخيرة كانت تدفئ له زجاجات الماء وتضعها تحت قدميه فى الفراش . وتلفه بالغطاء ثم تنصرف . وقال لها إنه أعد لها مفاجأة ستعرفها بعد موته ، وكانت وصية بمئتين من الجنيهات لأنه لم يكن غنيا .

لكن الناس قد يفتشون عن دوافع غير فاضلة للأعمال الفاضلة . وكنت أنا شخصيا فى صف الذين التمسوا لهذه الوصية أسبابا غير ناصعة .

وعلى كل حال عادت الست جليلة إلى الطبيب صباح يوم فرأته ميتا وحده . وإحدى زجاجات الماء محطمة على الأرض عند أقدام السرير . وعيناه مفتوحتان عن مقلتين كأنهما من الخرز الأبيض تحملقان فى القفر والسكون . والبيت الذى يسكنه لا يصيح فيه كائن حى إلا الكلب المشدود إلى شنكل الشقة !

قلت لها : « إننى أصبحت أغار عليك حتى من الذين مروا فى حياتك وانفصل واقعهم عن واقعك » . فسألتنى كأنما لذ لها أن تعبث بى :

ــ من أجل أى شىء أحببتنى ؟

ــ من أجلك جملة واحدة : اسمك وجسمك وروحك وكل شىء فيك . والذكريات التى تحوط صلتى بك . وحتى تعثرى فى الظلام ونظرى كل مرة إلى وحشة الحى من الخلف ... (الجراج) ومخزن الخرق والورق .. و .. وماذا أيضا ! ... أظنك فهمت الآن !

فقالت بعد تفكير وبلهجة تنذر بما يقلق :

ــ اسمع .

نعم .

ــ تعال نجرب أن نعود بعلاقتنا إلى ما كانت عليه ليلة ذهبنا معا « بنبيل » إلى المستشفى .

وفترت أجفانها وارتخت أوصالها كأنما دب فى جسمها خمر ... ثم قالت :

ـــ ليتني أعرف كيف أصف هذه الفترة ؟ .. إنها شيء لا يوصف ..

ـــ هل أفهم من هذا أننى سببت لك قلقا وأورثتك متاعب ؟

فسارعت إلى نفى أفكارى بحماسة حارة ثم قالت :

ـــ أريد فقط أن أستبقيك لنفسى مدة أطول ... هذا ما أريد ... هل فهمت يا صديقى ؟!

فهززت رأسى مؤمنا ثم قلت :

ـــ حسنا . نبدأ من اليوم .

وظللنا كذلك خمسة عشر يوما أجبرتنى فيها على أن أزورها بكثرة وبمعدل غير عادى حتى لا أكون هاربا من الواقع .

وفى اليوم الرابع عشر غرقنا جنب الشاطئ نحن الاثنين . ولما أفقنا ذكرنا ونحن نضحك فى يأس أنه كان من المستطاع أن نعبر التجربة لو تسلحنا بشىء من العزيمة .

وانخرطت هى فى بكاء عجيب . كان مريعا إلى حد أنه غير ملامحها فرأيتها أمامى كأنها امرأة سواها . ودخل نبيل علينا فجأة كأنما انبثق من الأرض . هبط من فوق السطوح . وكانت أخته فى الخارج . وسألها :

ـــ لماذا تبكين يا ماما ؟

ونظر إلى مستفسرا بعينين لم تخلوا من الدموع كأن السبب عندى أنا ، فأدركت فى هذه اللحظة فظاعة غش الأبرياء .

وبعد أن هدأ ما بها قالت لى :

ـــ هناك أشياء تقلقني في هذه الأيام .. أرأيت أولا كيف انهزمنا ؟ هذا يدل على شيء خطير بالنسبة إلى وإليك ... أنا لا أنام جزءا من الليل ... عددت ذات ليلة عدد النبحات التي نبحها الكلب في المخزن لأنني أرقت حتى الفجر ... وأصبحت أعرف الوقت برائحة الهواء من طول السهر ... وهناك شيء آخر ... إن قلبي يحدثني أن الله سينتقم مني ... على أنك ستتركني قريبا إما بسببي أو بسبب الزواج ...

ـــ بسبب الزواج هذا مفهوم ، فما هو السبب الآخر ؟

فوضعت سبابتها تحت إحدى عينيها مشيرة إلى لمسات الشيخوخة في هذه البقعة وقالت :

ـــ ألا ترى ؟!

وظللنا صمت ، وانشغلت بالنظر إلى معصمي الذي بدت عليه النحافة في الأيام الأخيرة . وحضرني في هذه اللحظة زميلي في الدراسة الذي قابلني عصر يوم على طريق المرصد ... هل تذكره ؟ يوم كنا في مدخل الربيع وهو منحدر مع ابنه بعد زيارته لأحد المرضى في المستشفى العقلي . وذكرت بياض شعره وآثار الزمن وخطوات السنين على ملامحه وهو من أندادي . وكان ذلك منذ خمس سنوات على الأقل يوم كانت الأعشاب على جنب الطريق المسفلت تشارك في مقدم الربيع بأزهار صغيرة على قدر طاقتها ، ويوم قال لي صديقي هذا مداعبا :

ـــ افرج عنه ... افرج عن ولدك ... إن الإنسانية لا تزال محتاجة إلى مواهب ... من يدرى ؟!

وقطعت الست جليلة حبل أفكاري :

ـــ ولم لا تتزوج ، هل تنتظر حادثا معينا ؟

فسألتها فى قلق :

ـــ ماذا تعنين ؟!

فأجابت متهربة :

ـــ لا أعنى شيئا . حرام أن تعرض عن نفسك ... أنا أحبك يا فؤاد .. لا تبق عازبا طول عمرك فأنا لا أستطيع أن أنسى يوم موت الطبيب ولا نباح الكلب ولا زجاجة الماء المكسورة أمام سريره فى الليل ..

فلم أجب . وملأت تجعدات الفكر والقلق والتدبير صفحة جبينى . وظللت مطرقا أنظر إلى معصمى والعروق اللازوردية الزرقاء التى أصبحت ظاهرة البروز فى ظهر كفى ، وأخيرا نهضت من مجلسى كأنما رفعنى (زمبلك) وقلت للست جليلة دون أن ألقى عليها نظرة :

ـــ سلام عليكم !!

وصفقت الباب بيدى فرن فى الليل والتمست سبيلى من الطريق الخلفى .

٢٠



وصارت أمى كثيرة الأحلام تتحدث كثيرا عن الموت والأموات . وركبتها مخاوف لم تتغلب عليها صلاتها . وفى كثير من الليالى كانت تستدعينى لأنام على مقربة منها . والدنيا فى نظرنا لا تساوى جناح بعوضة .

وعادت بدرية إلى البيت لتخدم أمها ، وسحبت وراءها الفوضى التقليدية كأنها ذيل من الغبار . وكانت منفوخة البطن تمشى بحملها وراءها ثلاثة ، والضجيج يملأ أركان المنزل . والحديقة أثر والسطوح مخلع البلاط . والمبانى عن يمين بيتنا وشماله قد ارتفعت وهو على مستواه القديم ، فصار السطح كأنه بئر فى قاعه الغسيل ، وحظيرة الدجاج والأطفال ، وكراكيب البيت .

وأمى فى حال لا يجوز لأحد فيها أن يضايقها . بحسبها أفكارها ! إنها تكفيها ! ...

تستعبد تاريخ حياتها كل يوم ثم تقلب نظرها فيما حولها وتبكي . وكانت بدرية تصرخ في وجهها أحيانا وتزجرها كأنها طفلة ، لأن قوتنا إذا تركتنا تحرك الناس وتركونا .

أما أنا فكنت في ركود أشبه بالذي يصيب الشاردين . أحاول عزل نفسي وأدس رأسي في أي شيء أقرؤه أو أجلس وحيدا في مكان موحش . وكم أطللت على مغارات الجبل ، ووقفت أراقب أحد الثعابين وهو يتحوى عند صخره أو يتسرب إلى جحر . وهذا الركود هو الطرقة التي نأوي إليها بضعفنا كما تدخل السلحفاة في درقتها الطبيعية .

وقالت أمي ذات مساء : « إنني سأموت يا فؤاد ... وأنا .. إذا كانت الظروف لم تساعدني على إسعادك .. فإن عزائي أنك رجل ... وأن نياقي حبالك يا بني كانت خيرا من أعمالي معك ... فإذا كنت قد أخفقت في تحقيق ما كنت ترجوه .... فلا تحقد علي ! » .

ومن الغريب أنها لم تبك ، كأن الدموع قد فات أوانها .

وقامت في الصباح تعلن في فرح أنها شعرت بتحسن غير منتظر . ونهضت من فراشها وجالت في البيت وصعدت إلى السطح وأطعمت الدجاج وجمعت بيضه ثم جلست في الشمس . ولعب أمامها أبناء بدرية ، وغنت لبعضهم بنفس مقطوع ، وذبحت دجاجة ضبطوها عدة مرات وهي تثقب البيض بمنقارها وتشربه . وفاجأتني وقت الظهر بأن قدمت لي طبقا من الكشك ووركا من الدجاجة . ثم تركتنا ودخلت إلى غرفتها ...

كان الوقت شتاء واليوم صحوا جميل الشمس ، فخرجت بعد الغداء إلى الخلاء أشعر أن براعم جديدة تتفتح على غصني ، وكنت منشرحا

فذكرت صديقتى . إننى لم أرها منذ شهر كامل ولم أحاول أن أذهب إليها ، بعد الموقف الذى وقفته منى ليلة صفقت بابها وخرجت . ولم تذهب إلى فى عملى ، قلت بينى وبين نفسى : إنها عنيدة فلأكن عنيدا . وهكذا هن . لقد بلغت (درجة التشبع) .. الحب حاجة لا أكثر ولا أقل . بدليل أننا لم نستطع أن نحب بأرواحنا هكذا فى صمت بعد أن أحببنا بكل ما فينا . أنا وهى .

إنه يبدو على الأفق — وقريبا جدا كما ترى عينى — أن ناسا سيغيبون عن نطاق . ستتغير الأحوال .. ستنطفئ الأنوار كما قالت الست جليلة .. طيب .. ولماذا لا يكون العكس ؟!

لن أذهب إليها . لكن .. لماذا لا تكون عاجزة عن أن تحضر إلى ؟! لن تبيعنى بهذه السهولة . لقد ظلت تعطى وأظنها مستعدة لأن تعطى أيضا ، آه .. لن أذهب إليها ...

وفى المساء عادت أمى إلى ما كانت عليه من تعب ... فنذرت لله إن خفف ما بها لتحجن إلى بيت الله !

وكررت لى أنه لا يجب أن أحزن عليها إذا ماتت : « لا تستسلم للأحزان يا بنى فإنها تقتل ... تزوج بسرعة ... فإنها ولا شك ستنسيك كل ما فات !! » .

— أنت بخير يا أمى فلا تقولى ذلك !

ولما تذكرت الست جليلة وهجرها الذى قد يكون أبديا ورأيت قرب نهاية أمى أحسست كأننى فى عربة يجرها فرسان استطاعت كل واحدة منهما أن تتحرر من رباطها وتجرى فى اتجاه ، وبقيت أنا حيث كنت جالسا فى العربة المتوقفة وحيدا أنظر حائرا مذهولا إلى كل فرس مرة !!

لا بد أن أنفض أحزاني بين يدى صديقتى . سأذهب لأراها لأن عندها ما شغلها عنى ، فلأنظر من أى نوع هو . وعرجت على حجرة أمى وأنا فى ملابس الخروج ، قالت :

— إلى أين يا فؤاد ؟

وكأنها لم تنتظر لأكذب عليها فأعفتنى من الكذب الذى عودتنى عليه معظم حياتى ، فاستطردت قبل أن أجيب :

— أرجوك ألا تغيب .

فسرت أتلكأ فى نواحى الضاحية وأستمع إلى ريح الجبل التى تنصب على رءوس الأشجار فى الحدائق فتهز بها وتميل ثم تعود إلى وضعها الأول . وكان الليل شديد البرودة لكننى كنت أشعر أنى فى حاجة إلى أن آكل الثلج أو أشربه مذابا . والأسوار الطويلة حول البيوت الكبيرة تبدو كأسوار الجبانات ... والأضواء من وراء المصاريع وكأنها ساهرة على الموتى فى الداخل ...

وهتف بى هاتف فى داخلى : ليس هذا وقت النزهة ولا لقاء العشيقات ...

ربما كانت أمى محتاجة إلى فذهبت لأسهر جنبها .

. . أما بدرية فكان يبدو على وجهها ملامح من ينتظر اللحظة التى تنفض فيها الشركة ، وزوجها جالسا يجتر ، لست أدرى أكان يأكل أو كان يقزقز (لبا) . وخداه الكبيران يتحركان ، والأطفال نائمون ، والشتاء فى عنفوانه . وعوامل الطبيعة على وشك أن تبذل مجهودا غير عادى .

والنهايات حتى لو كانت مخيفة يتعجل الناس سعيهم إليها ، كنت على الرغم من توقعي للأخطار وخوفي منها أرى فى قرارة نفسي تشوقا إليها كالضربة ننتظرها من الخلف ، أو الرصاصة نتوقعها وعيوننا معصوبة .

ولما دخلت على أمي أشارت إلى أن أصعد فأجلس جنبها على السرير ، وقالت بصوت ضعيف : « لم يعد لى ما أخاف عليه إلا أنت يا بنى ... تذكر وصيتى ! حافظ على نفسك ! » .

ولم تحاول أن تنظر إلى بعد ذلك ، وسكتت كأنها تتأهب للنوم .

أما أنا فلم أتكلم . لم يكن فى قلبى لها إلا كل حب وإشفاق ، بل شعرت أنها مظلومة ، ماذا أخذت من حياتها إلا الحب الذى أورثها المخاوف ؟! كالبخيل يدفن المال فى جوف الأرض حتى تأكله الرطوبة ، ولو تركه يسعى فى السوق لعاد إليه سليما ومعه الربح !!

كانت كعود من القصب متدثرة فى الأغطية . ماذا تقول فى نفسها الآن ؟ هل ترانى داخلا عليها وفى يمينى امرأة فى ملابس بيضاء وترى نفسها مدفوعة نحوها لتقبلها فى خدها ؟! أم ترى سميرة واقفة على بعد وهى تشير إليها بأن تجئ وتتلفت كأنها تخاف أن يراهما أحد ؟!

وهذا ما رأته أمي فى أحلامها وفسرته بالموت . أنا لا أستطيع إلا أن أحزن عليها :

ـــ ماما .. ماما .. لماذا لا تردين ؟!

وانقصف فى هذه اللحظة غصن فى الشجرة العجوز القائمة فى ركن الحديقة فعبرت قرقعته عن معنى (الانفصال) فنظرت إلى أمي وهى تبتسم لكنها لم تتكلم ، وسحبت كفها وقبلتها ثم ملت على جبينها وتركت عليه قبلة أخرى ... ولم أستطع أن أبقى فى الحجرة ...

وربضت جنبها بدرية كمن يرقب أمرا مقررا ولا يخيف ، وذهبت أنا إلى حجرتي لأحسب حسبة حياتنا .

ومع الفجر صرخت بدرية ونبح الكلب فجأرت بالبكاء :

ــ لماذا تركتني يا أماه !!

لكن الأستاذ بدران قال لي وقت العزاء كأنه يذكرني بأمر لا ينبغي أن ينسى : « هل من الطبيعي أن تتركها أنت أو من الطبيعي أن تتركك هي ؟ .. تجلد أيها الطفل ! » .

* * *

ولم يخل على البيت فقد ظل عامرا بأنفاس بدرية .

كانت في ثيابها السوداء ونظراتها القلقة وجسمها النحيف وطبعها الحاد شديدة الإخافة .

وبعد ثمان وأربعين ساعة ذهبت إلى الإدارة فأخبرني عم سيد : « إنها جاءت وسألت عني » قلت له في شرود :

ــ من هي ؟

فأجاب ببرود وخبث :

ــ هي ! ... هي نفسها !

فتركته ودخلت .

ولما انقضى النهار سرت إليها سير العطاشى . في القلب حزن يشبه الجرح يريد الضمادة ، أشعر أني أريد حنانا من نوع لا تستطيع امرأة أن تمحه إلا الست جليلة . حنان الأم مخلوطا بالراحة الجسمية والتنهد والدموع ، وقد ينتهي بالنوم الطويل .

وطالعتنى معالم حيهم فى الليل المظلم كأنها أشباح على الشاطئ أراها وأنا فى اليم . وكان بابها نصف مفتوح فرأيتها فى الصالة واقفة وفى يدها جريدة نخلة تهدم بأطراف سعفها « بيت عنكبوت » فى أحد الأركان على مقربة من السقف .

ودفعت الباب ودخلت ثم أقفلته بظهرى .

وألقت ما فى يدها والتفتت مدهوشة . ثم أقبلت نحوى فارتميت عليها أبكى بصوت مرتفع . حذرتنى قائلة وسبابتها على فمها : « إنهما فى الداخل .. ماذا يقولان إن سمعا بكاءك ؟! » .

وتدافعنا نحو الحجرة فنظرت إلى رباط عنقى الأسود وقالت وكأنها تذكرنى بإنذار قديم :

ـــ انتهى الأمـــر ؟! ... ألم يكـــن هذا متوقعـــا ؟! .. لا تشق نفسك ! (وتحسست شعر ناصيتى) أيها الطفل العزيز !...

وساد سكون فلم يتكلم أحدنا ، وتركتنى وذهبت إلى الداخل .

كان التعب باديا عليها والسن كذلك . بدت بنت خمس وأربعين سنة أو تزيد . وخطوط الشيخوخة فى وجهها تقرأها كل عين . وجلست مشوقا لأن أرى ماذا ستعمل ، متلهفا إلى نسمة حنان تهب من أى مكان . فلما رجعت إلى كان فى مقلتيها دموع ، وجلست وشىء من الخوف يبدو فى حركتها أشبه بذى الثوب النظيف ينظر إلى مكان جلوسه فى حذر ، ثم أمسكت كفى وهى بعيدة عنى وقالت بلهجة غريبة :

ـــ لو لم يحدث ما حدث بيننا لاستطعت أن أكون أمك !

فأطرقت أتدبر قولها . وخيل إلى بعد وهلة وكفها تدعك كفى أنها

تقول ذلك لتنفرنى من شيء معين . فنظرت بوجه فى مثل بياض الشمع وعينين تلمعان كالمرآة قائلا باحتجاج :

ــ ما هذا اللقاء الحار ؟!

فأجابت بيقين :

ــ لا تحزن ... لا تتعجل فسأحكى لك كل شيء .

ــ قولى .

قالت برقة .

ــ حاضر .. سأقول .. إذا جاء الفراق فى الوقت المناسب لم يسبب أحزانا كبيرة . وكنت أريد أن أقول لك هذا الكلام ليلة خرجت غاضبا من عندى ، من الخير أن نضع خاتمة لما بيننا فى وقت مبكر . المصلحة مشتركة وكل منا سيستفيد .

فقمت من مكانى غاضبا وجريت نحو باب الغرفة بنفس الطريقة المفاجئة الرعناء التى خرجت بها فى المرة السابقة . فجرت خلفى واحتضنتنى من الوراء ورجتنى بصوت مخنوق مغلوب متهافت يدل على الحب وتعارض المصالح :

ــ لا تتصرف دائما كما يتصرف الأطفال ... عد معى يا حبيبى .

فعدت وجلست ساكنا .. وبعد وهلة ربتت على خدى وسألتنى وهى تدنى وجهها من وجهى :

ــ إننى رسمت خطة . خطة نهائية وسأستعين فى تنفيذها باثنين أحدهما أنت ... وسكتت ، فكان طبيعيا أن أسأل :

ــ والثانى ؟!

ــ الثانى ... الله !

فابتسمت للمرة الأولى بعد موت أمى ونظرت إليها نظرة مستفهمة مذكرة بالماضى فقالت :

ـــ أنا أفهم كل ما تريد أن تقول لكن .. هل من الضرورى أن نظل هكذا .. إننى أخاف على أبنائى .. لقد أصبحا يدركان الأمر إدراكا غامضا ربما يفسره لهما شخص أو حادث .. وما دمت لا أستطيع أن أكون أما فمن الأولى ألا أعود .. آ .. الدنيا تغيرت يا صديقى لقد كبرت .

ـــ من ؟

ـــ أنا ... ألا ترى ذلك ؟! سأحاول أن أقيم سدا بين الحاضر والمستقبل . ساعدنى وسيساعدنى الله .. لقد عزمت على أن أحج ..

وأطرقت فى خجل ..

فسألت مستغربا :

ـــ تحجين ؟!

ـــ نعم . أما أنت فسأراك (عريسا) .. ستنسى كل أحزانك .. احذر أن تستسلم يا أخى .. أليس من الجائز أن ألتقى بكما ذات يوم وأنتما فى الطريق .. آه .. بماذا ستحدثها عنى ؟! .. يومئذ تقتحمنى نظراتك .. إنها فتاة سعيدة .. انظر كيف أن امرأتين تحبانك جدا حرمت إحداهما وستحرم الأخرى من أن ترى (عروستك) ؟! ..

وجرفها التيار فنسيت نفسها ، وبكت بحرقة . ووقعت أنفاسها على خدى وهى جالسة ، فخذى جنب فخذها ، وكأنها همت أن تغرينى بقبلة فوجدت لزاما على أن أتغافل .

وكفكفت دمعها ثم قالت وهى تبتسم :

ـــ هل سببت لك ألما ؟!

فأجبتها بحنان :

ـــ لا ..لا تحزنى !

ـــ فكر فى نفسك أنت . واعلم أننى لن أنساك ! لكن .. هل سيقبل الله حجتى . سأتوسل إليه هناك . من يدرى ؟! .. أليس من الجائز أن أدفن فى (المدينة) ؟!

وكان الخجل يلون خدها فأكدت لها ما سبق أن أكده أبى لأمى حين نهته عن المعاصى : « من أن الله غفور رحيم وأنه لا ينبغى أن نسلبه إحدى صفاته » .

فقالت فى فرح :

ـــ إذا مت فاسأل عن أبنائى . إنهم يحبونك !

ـــ وإذا عدت بالسلامة ؟

ـــ سأذهب إليك إذا احتجت معونة منك ونعيش أخوين .. أليس ذلك ممكنا ؟

ـــ ولماذا لا يكون غير ممكن ؟!

ـــ عدنى أنك تسارع بالزواج . هل تذكر ؟

ـــ قصة الطبيب ؟!

ـــ حسن . أنت تذكر كل ما قلته لك . إذن فأنت تحبنى . وهل تذكر آخر لقاء كان بيننا ؟ اجعله دائما فى خاطرك . آه .. ما لنا ضعفاء . أشكرك فإنك ستساعدنى !! ..

ـــ وسيساعدك الله . وداعا !

وقبلت كفيها الاثنتين وذهبت تودعني حتى الباب . وبعد أن خرجت سمعت شهقة بكائها وهى تلقى على — من فتحة الباب الموارب — بالنظرة الأخيرة .

* * *

وفى المساء التالى رأيت بدرية تنقل إلى بيتها ، وهى بملابس الحداد أشياء عدتها غير لازمة لى .

فراش أمها وثيابها ، والدجاج والأرانب ، وقرطها الطويل وصوان ملابسها . قلت فى نفسى : لقد أخذت حاجات العروسة فكيف لا تأخذ حاجات العجوزة ؟ فلتأخذ إذن كل ما يشفى غلة طمعها . ثم خرجوا من البيت ...

وفى الليلة الأولى من ليالى وحدتى ظلت الأشجار تحف طول الليل والهواء يئن . والكلب ينبح . ورأيت أشباحا كثيرة ما كنت أتوقع أن أراها ، كأن أرواح الذين سكنوا المنزل ورحلوا عنه كانت هائمة فيه . أبى ينزل من فوق ليأخذ العصا ويحبك الطربوش ثم ينقل خطاه المنتظمة على البلاط فى الصالة ويخرج . وسميرة مكبة على الأرض تمسحها وثوبها مربوط على وسطها على هيئة حزام ، وكأننى أسمع (كبكبة) الجردل . وأمى ترتب النحاس فى المطبخ . وبدرية تحمل قفص الدجاج على رأسها وتلف به الصالة كأنها تطوف حول ضريح ...

سألت نفسى : أهذا كابوس ؟!

ثم أجبت بعد برهة : لقد كان العمر كله كابوسا !! ماذا أصنع لو اعتزانى مرض وأنا وحدى . أو دخل على لص .. أو أصابنى إغماء ؟ ما أفظع حياة الوحدة ! إن المقبرة الوحيدة تثير حسرة المارين . آه ..

حتى المقابر تقوم على هيئة مجموعات .. يا إلٰهي . لن أستطيع أن أعيش هكذا . لا بد أن يتغير كل شيء . حاولت أمي ـــ وربما كان على غير قصد منها ـــ أن تعوق تدفق الحوادث بكفها ، وقد نجحت فى ناحية وفشلت فى ناحية . احتفظت بى لأنها تحبنى ثم أحست أخيرا بالحسرة لأنها احتفظت بى ...

سأترك هذا المكان . نعم . يجب .

وقبيل الفجر استيقظت على بكاء طفل . ولم أدر أين أنا ؟ ثم أفقت شيئا فشيئا فذكرت تفاصيل الحوادث . فملأنى الرعب . وكان الكلب ينبح فى الحديقة والريح تئز . وصفيحة قديمة على السطح منزوعة من العشة كان أولاد بدرية يلعبون بها فأخذ الهواء يلعب بها فى الليل .

وسألت نفسى : ومن أين جاء بكاء الأطفال ؟ إنه كابوس ! كابوس ؟! لقد كان العمر كله كابوسا ... سأترك هذا المكان . من يرينى وجه الصباح ؟ .. كم هو جميل ! .. لا يعرف جماله إلا من هو فى مثل موقفى ! ...

وفى الليلة التالية كان البيت مغلقا لا يلمع فيه نور وأنا فى شقة صغيرة جديدة ، فيها بقية أثاثنا فى حارة فى قلب القاهرة ، مزحومة بالناس لأننى ظمآن إلى الضجة ، أفكر ـــ والكلب مشدود إلى شنكل الشقة ـــ فى التى ستشاركنى سكنى .

وحين أشرقت شمس الصباح التالى وألقت بأشعتها على بيت حلوان . كانت الحديقة شديدة الظمأ . وسلم السلاملك معفرا وعليه آثار المطر . والباب الداخلى موصدا بالمفتاح . وباب الحديقة المصنوع من قضبان الحديد مغلقا بقفل وسلسلة ، وقد علقت فى أعلاه لافتة من الورق المقوى كتب عليها بحروف كبيرة : « الأرض والأنقاض للمبيع » !!

ومر عليه أول رجل فهمس وهو يحرك رأسه :

ـــ سبحان الله ! .. أين سكانه ؟! .. لكن .. الأمر لا يخلو من فرصة .. لأن الأرض فى هذه البقعة أصبحت غالية الثمن !

ولم يشعر ذلك الذى حسب الحسبة أننى خلفت بين هذه الجدران أعز ذكريات الشباب !

(الروضة ـــ القاهرة ـــ فى يناير ١٩٥٧)

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

رقم الإيداع ٣٣٢٤
الترقيم الدولى ٩٧٧

0293794

الثمن ٤٠٠ قرش